

القسم الثالث
محاولة الانشاء من جديد

الفصل الأول

لوك ومذهب التجربة^(١)

لم يكن بد إذن من بدء الرحلة الطويلة من جديد ، وتوجيه القافلة البشرية إلى طرق أخرى ، صوب أهداف أخرى .

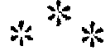
وكان الواجب يقضى بادی ذی بدء ، باجتنا ب مذهب الارتیابیة ، الذی كان بایل نفسه یخشاہ . « المناقشة فی کل أمر دون اتخاذ قرار إلا إرجاء الحكم » ، هذا ما یؤدی إلى الخمود ، بل إلى الموت . فمذهب الارتیاب ، ولو أنه معوان صادق یضمن للعقل حریته فی الاختیار ، قد انتهى به الأمر إلى القضاء علی الإرادة ، بل إلى قتل کل احتمال فی الاختیار . فالأمر لا یتعلق بالمناقشة غیر المجدیة ، والموازنة بین ما للشیء وما علیه ، le pour et le contre ، بل یتعلق بالأسراع نحو أقاصی السعادة .

لقد شرح فونتنل لتلمیذته المركیزة (٢) — وهما یتأسلان النجوم سویا — أن الفلسفة تقوم علی أمرین : أن لدينا ذهنًا مستطلعًا وعیونًا کاملة . حتی إن الفلاسفة یقضون حیاتهم فی عدم التصدیق بما یرون ، وفی محاولة إدراك ما لا یرون : وتلك حالة لا تطاق . وقد كان الأوفق ألا نشغل البال بما لا نرى ، وأن نصدق بما نرى . وإن سنها للیة یحقق هذین الشرطین ، لیكون خیرًا للناس ، فانه ینقذهم من الشك .

ولتحقیق هذا الغرض ، یتدخل لوك .

(١) L'Empirisme .

(٢) أراد فونتنل أن یشرح فلسفته فی أسلوب شائق ممتع ، فقدمها فی شكل محادثات بین فیلسوف ومركیزة تتلمذ علیه . والكلام الذی أورده المؤلف مقتطف من کتاب فونتنل « ابتسام العقل » ... Fontenelle : *Le Sourire de la Raison* ... [الترجمان]



لقد ظهر في الوقت المناسب ، كرجل مصلح محسن ، لأنه أثبت قيمة الواقع وسمو فضله . ولا نقصد الواقع التاريخي الذي أنكر وأدين وألغى . إذ تلك مسألة لا يستطيع اسرؤ أن يعود إليها ، فقد بت فيها . فالوقائع المفقودة في غياهب ماض لا بعث له ، لم تعد تصل إلى الناس ، إذا أرادوا أن يعيدوها إلى وضوح النهار ، — إلا سيئة التفسير ، مزورة ، كأنها بالكذب ملطخة ؛ فلم يستطع ذوو العقل السليم أن يثقوا بها . لم يكن بد من يقين آخر ، وجون لوك هو الرجل الذي كشفه .

ذلك أنه يبين للمفكرين الحقائق السيكولوجية ، الكاسنة في النفوس ، حية ، لم يعتورها فساد . والعقل ، في هذا الميدان ، يعين ولا يشل ؛ فهو ليس ملزماً — مهما أوقى من حذر — بتسجيل معارف أولية تبعد عن متناول النقد فحسب ، بل يجد أيضاً غبطة في الكشف عن ظروف نشاطه الخاص ، التي كان يجهلها . هكذا يقبل العقليون تحالفاً ينقذهم من الشك ؛ فالتفكير في القرن الثامن عشر ، الذي تمتد جذوره إلى القرن السابع عشر ، — عقلي rationaliste في جوهره ، وتجريبي empiriste بالاتفاق .

كان لوك يبدو وكأنما قد خلق خصيصاً ليكون فيلسوفاً بحق . فهو أولاً انجليزي : ولذا فهو عميق التفكير . ثم إنه لم يقنع بدراسة الميتافيزيقا ، بل درس العلوم التجريبية ، الطب ؛ فقبلما ينشغل بالروح ، أهتم بمعرفة الجسد : وهذه حيطة طيبة أهملها الخياليون . وقد شارك في الشئون العامة ، فكان كاتب سر للورد أشلي Lord Ashley كونت شافنسبري وموضع ثقته ، ثم فقد هو وسيده حظوتهما لدى الملك ، ونفى إلى هولاندة ، ثم رجع ظافراً مع ولیم أورالنج ، فكان من أولئك الذين أسسوا إنجلترا الجديدة ، التي لا تغلب . ولكنه كان عاقلاً في قناعته بالوقوف في الصف الثاني ، فقد استطاع بتوازيه قليلاً أن يشاهد ما جبل عليه الناس من ختل ودهاء . ولما كان مسقماً ليلاً ، فانه لم يستغرق في الحركة والنشاط بالمتعة التي يجدها الأشداء : بل تصرف بتمحفظ وحكمة كأنما ليحسن التفكير . وقد زادت رحلاته مرونة ، فقد أقام طويلاً في جنوب فرنسا دارساً عن كذب ذلك الشعب الذي ليس كريهاً ،

وإن بدا غريباً : فدرس أخلاق الفرنسيين ، وغذاءهم ، وكيف يفكر منهم من يفكر ، وكيف يعمل منهم من لا يفكر ؛ وكيف كانوا يصنعون تلك المنتجات اللذيذة التي لا توجد في إنجلترا ؛ الزيت والنبيد ؛ وكيف ولماذا كان فلاحهم تعساً . وقد صادق في باريس الأطباء والفلكيين ومختلف العلماء ، والبحاث والقلقين les inquiets . ولكن هولاندا كانت أنفع له ، إذا صح أنه لا مدرسة أكثر فائدة ولا أقسى من مدرسة المنفى . ولما طرد من بلاده ودار في بلاد « الملجأ » تأمها معاشراً دعاة الإصلاح ، والخارج ، ومعارضى الأورثوذوكسية ، رجع إلى مدرسة التفكير . وأخيراً أصبح مربياً ، وهذا أيضاً نوع من التعليم ؛ ولأى تلميذ ! لابن حاسيه لورد أشلى — شافتسبرى ، الذى سيطالب قريباً بمكانه بين أعلام الفلسفة الجديدة . وجون لوك رجل مهذب gentleman لعدم زهوه بعلمه ، ولبعده عن العجرفة ، ولبساطته وحكمته ، (باستثناء بعض نوبات من الغضب الشديد) ولأنه محبوب في الحياة كما هو في كتبه ، ولما يزدان به خلقه من نبل طبيعي . وهو لا يشبه الأستاذ ذا الرداء التقليدى والقلنسوة المربعة في شئ ؛ لا يتيح له صدره الضعيف أن يصيح من فوق المنبر ، بل هو يخاطب الدنيويين في إسهاب وأناة . فالفلاسفة الحقيقيون سيكونون فيما بعد من الدنيويين ؛ لن ينتخبوا — إلا فيما ندر — من بين رجال الدين ، ومن بين أساتذة السوربون أو السابينزا : بل سيندمجون في الحياة لكي يديروها .

ابتدأ بفلسفة المشائين التي درسها في أكسفورد ولم يستسغها . وظل مدة طويلة ، يبحث عن طريق ، متخذاً من باكون وغاسندى وديكارت أدلاء : ولكنه لم يكن يثق إلا بنفسه . في شتاء سنة ١٦٧٠ - ١٦٧١ ، بينما كان يتحدث في الفلسفة مع بعض أصدقائه ، وجد أنه كان في حاجة إلى قاعدة أكيدة ؛ فمبادئ الأخلاق والدين المنزل لا يمكن أن تقوم على أساس سليم ، مالم « نفحص قدرتنا الشخصية ونعرف أى الموضوعات تقع في متناولنا وأيهما فوق إدراكنا . » إذن ، لابد من أن نقدر قوات الإدراك بالتدقيق قبل أن نشرع في أى خطوة أخرى ؛ ولا ينبغي أن نعيش على الاحسان ، ولا أن

نركن في كسل إلى آراء الناس ، ولا أن نهتم بما إذا كنا في حماية أفلاطون أو أرسطو ، ولا أن نقسم بأقوال الأساتذة ؛ بل بالعكس يجب أن نجعل من الحقيقة هدفنا الوحيد ، وأن نتوسل إليها بروح الفحص . إنك تجد ، في بداية حياة لوك الذهنية ، نفس هذا العزم على الاستقلال ، ونفس هذه الحاجة إلى التجديد ، ونفس هذه الرغبة في ألا يعتمد إلا على تفكيره الذاتي ، وهذا ما كان يختصر في الضمائر إذ ذاك .

إن هذا المنهج ليس من فعل رجل منعزل . بل يخيل إلينا أننا نسمع أولئك الأصدقاء الذين يسألون لوك ، لأنهم في حاجة إلى أن يعظمهم ؛ ويفوضون أجدرهم بايجاد فلسفة تسكن ارتياهم ، وهم بذلك إنما يترجمون عن مقتضيات زمنهم . إن لوك قد استدعاه زمنه ؛ إنه ظل طول مدة تعليمه على صلة مباشرة مع معاصريه ، مستمعاً إلى سؤالهم ، ذلك السؤال الخالد الذي أصبح عويصاً ، لأن الأجوبة التقليدية لم تعد تكفى وهو : ما هي الحقيقة ؟ *Quid est Veritas* ؟ عليه أن ينطق بهذه الحقيقة الجديدة . وبدأ منذ عام ١٦٧١ يسطر على الورق بعض الأفكار التي سرعان ما كونت مجموعة كان يمكنه أن يطلع بها على الجمهور كما هي عليه ؛ ولكنه سينتظر قرابة عشرين عاماً في استكمالها وتجربتها ، مطلعاً خاصة أصدقائه على مخطوطه : لا منعزلاً بل اجتماعياً . كان يفكر ويشغل ، ويعمل شيئاً فشيئاً على استكمال مذهبه ، سواء في طرق فرنسا ، في الفنادق ؛ أو في لندن في وسط ضجيج السياسة ؛ وفي أكسفورد ملجئه العزيز ؛ وفي روتردام وأمستردام وكليف . وأخيراً عندما شرح نظرياته ، شهد الناس أن لديه قدرة نادرة على إخفاء الحيوية على أى موضوع يطرقه . لأنه لم يقتصر على الفلسفة المحضة ، بل كان يروق له أن يبدى رأيه في الدين وفي السياسة وفي البيداغوجيا ؛ وكلما نشر كتاباً أثار أصداء لا نهاية لها . لست أرى رجلاً غيره ، لم يكتب شيئاً إلا بدا جوهرياً ، سوى جان جاك روسو ؛ الذى كان يثير دائماً اشتعالا كلما تكلم في الدين أو السياسة أو البيداغوجيا . إلا أنك لا تجد لدى لوك — الذى تخفى رصانته لهيبه — تلك الحرارة التي يشعل بها روسو كل من يقربه . ولكنه استشعر قبل روسو ، نداء الضمائر فاستجاب إليها : هنا سر قوته الفعالة . إن كتيبه تبدو كمحادثات تؤثر على القارئ ولا تسمح له بالانصراف إلا مقتنعاً ، فهي تقنعه بالتكرار مائة

سرة ، وتكسبه في صبر وأناة ، إن ألفاظها تطوقه وتستبقيه . أسا وسائله ، فهي الأدب الرشيق ، وجزالة الأسلوب ، وشئ من التدفق الواضح . فالغموض ، والاغراق في التركيز ، والتغالي في التعمق ليس من شأنه ؛ بل هو لا يقبل غير الواضح المبين ؛ ويتألم عندما يجادل روحا ميتافيزيقيا كروح مالبرانش . « يجب الاعتراف بأن لدى هذا الفيلسوف تعبيرات كثيرة لا تقدم لعقلي أفكارا واضحة بينة ، ولذا فهي ليست سوى أصوات لا تستطيع أن تأتيه بأى نور . . . » — « هنا أجد نفسي أيضاً في ظلام كثيف . . . » — « يخيل إلى أن أى كاتب يحشم نفسه مشقة التعبير عن أفكاره في غموض ، لم يكن لينجح كما نجح الأب مالبرانش هنا . . . » . ما أبعد لوك عن هذا الغموض ! — « بما أنى لم أقصد من نشر هذا الكتاب ، إلا أن أكون مفيداً بقدر ما أستطيع ، فقد اعتقدت أنى ملزم بجعل كلامى واضحاً مفهوماً بقدر الامكان ، لكل أنواع القراء . أفضل أن يشكو أصحاب العقول النظرية والثاقبة من أنى أضجرهم في بعض صفحات كتابى ، على أن يعجز بعض الأشخاص الذين لم يألّفوا المطالعة العلمية والمجردة — أو الذين أشربوا معارف تناقض ما أقدم لهم — عن إدراك معنى كلامى أو فهم أفكارى . . . »

ذلك هو شعوره وتلك هى طريقته . أفلم تكن أيضاً علامة من علامات الزمن ، هذه الارادة الصريحة فى ألا يقصد المؤلف إخصائى الفلسفة فحسب ، وأن يغضب عند اللزوم العقول « النظرية الثاقبة » ، بل يخدم كل الذين يبحثون عن قاعدة صالحة للحياة ؟

وأخيراً ظهر كتابه فى عام ١٦٩٠ ، تحت عنوان متواضع ، « مقال عن الادراك الانسانى » *An Essay concerning human understanding* . ومهما قال أولئك الذين لا يحبون فى الفلسفة « الألعاب الكبرى » أى الموضوعات العميقة فانه كان تاريخ تبديل قطعى ، تاريخ اتجاه جديد . لقد أتيح للانسان منذ ذلك اليوم أن يتخذ من ثروة العقل الانسانى اللانهائية موضوعاً لأبحاثه . يقول لوك : فلندع تلك الفروض الميتافيزيقية : ألم نر أنها لم تؤد أبداً إلى نتيجة ؟ ألم نتعب من أسئلتنا غير المجدية ؟ من استطاع أن يحدد طبيعة الروح

وجوهرها؟ أن يبين أى حركات يلزم أن تثار فى عقولنا الحيوانية ، أو أى تبدلات يجب أن تحدث فى أجسامنا لكى تولد — بوساطة أعضائنا — مشاعرنا وأفكارنا؟ إن الجسد يخضع للروح ، إن الجسد يؤثر على الروح : وما تكاد الميتافيزيقا تتدخل حتى يصبح هذا الواقع التجريبي ، الذى هو واضح كل الوضوح فى ذاته ، سرا لم يعمل العلماء إلا على زيادة غموضه ، فلندعه ؛ فلا مدعاة للاهتمام به . إذا كانت هناك جواهر خارجية عنا (ولا شك فى أنها موجودة) ، فليس لدينا أى وسيلة لنذكر حقيقة كيانها ، فلماذا نحاول إدراكها بأى ثمن؟ فلندع فيما بعد هذا البحث المؤيس الذى لا رجاء فيه . إن اليقين الذى نحن فى حاجة إليه موجود فى نفوسنا فلننظر إلى هذه النفس ، ونحول عيوننا عن ذلك الاستداد اللامتناهى الذى يخلق السراب ولنركز بصرنا عليها . أما وقد عرفنا أن إدراكنا محدود ، فلنقبل حدوده هذه ؛ ولندرسه كما هو ، ولنعرف كيف يعمل . فلنلاحظ كيف تتكون أفكارنا وتتركب ، وكيف تحتفظ بها ذاكرتنا ، فقد كنا نجهل ذلك العمل الاعجازى حتى الآن . هنا نجد المعرفة الصحيحة ، المعرفة الأكيدة الوحيدة : وما أغناها بالمرئيات حتى لا تكاد الحياة تكفى للتأمل فيها :

« إن مثلنا فى هذا الصدد مثل البحار الذى يركب متن البحر . يفيد به جداً أن يعرف طول حبل مسبره ، وإن كان المسبر لا يكفيه دائماً لتعرف مختلف أغوار المحيط : يكفيه أن يعرف أن الحبل من الطول بما يكفى ليصل إلى القاع فى بعض أرجاء البحر التى تهمة معرفتها لكى يحكم رحلته ، ولكى يجتنب مواطن الخطر . فان شأننا فى هذه الدنيا ليس أن نعرف كل شئ ، بل أن نعرف ما يتعلق بتوجيه حياتنا . فاذا كنا نستطيع أن نجد القواعد التى يمكن للخلق عاقل كالإنسان — بالحالة التى هو عليها فى هذه الدنيا — أن يستعملها ، ويجب أن يستعملها ، ليدير مشاعره وما يتصل بها من أفعال ؛ — أقول ، إذا كنا نستطيع أن نصل إلى هذا الحد ، فلا ينبغى أن ننزعج لوجود أشياء أخرى فوق متناول إدراكنا (١) . »

أو فلنقل بالفاظ أخرى — (لأن لوك لا يخشى أن يكرر كلامه) — :
ماذا علينا أن نفعل في هذه الدنيا ؟ — معرفة الخالق بما نستطيع أن نعرفه
عن المخلوق ؛ معرفة واجباتنا ، ومواجهة مقتضيات حياتنا المادية . ولا شيء
غير ذلك . وسهما كانت قدرتنا ضعيفة غير صعبة فقد خلقت متناسبة مع هذه
الاحتياجات ، إذن ، فلندع البحث عن معرفة كاملة مطلقة بما يحيط بنا من
أشياء تخرج عن تناول المخلوقات الفانية ، — ولنقتنع بما نحن عليه ، ولنفعل
ما نستطيع أن نفعل ولنعرف ما نستطيع أن نعرف . . .

والواقع ، أنه ما يكاد عقلنا يحاول الخروج عن دائرته المحدودة للاتجاه
صوب العمل ، حتى نرى أن هذا البحث لا فائدة له إلا أن يشعروا بقصور
معارفنا : إذ نصطدم بسياج من الظلام . وعلى النقيض ، لو أننا قنعنا بالدائرة
المخصصة لنا — كالرواد المتواضعين ، لاكتشفنا علما من العجائب ، ولظفرنا
بالحكمة ، والسعادة . فهل يجب أن نتردد في الاختيار ؟ لنطأ على المستحيل ،
فلن نخشى السقوط في الهوة إذا أحكمنا قبضتنا على الوقائع الأكيدة التي يمكن
أن تتناولها أيادينا مهما كانت ضعيفة .

والقيمة الإبداعية لفلسفة لوك ليست في أطراح الميتافيزيقا ، وهو ما قبلته
ضمائر عديدة من قبل ، بل هي في تحديد جزيرة والاحتفاظ بها في لجة المحيط
الهائل الذي يزيغ فيه البصر .

وفوق ذلك فإن عليه أن ينظم هذه الأرض التي يريد إنقاذها من الارتباب .
ينبغي أن يعد المعرفة المسلم بها *a priori* كأنما لا وجود لها : يا للتغير . . . !
يجب أن يبدأ كل الفلسفة من جديد على صورة أخرى ، كل الفلسفة ، منذ
أرسطو إلى أحدث الفلاسفة ، فلاسفة مدرسة كبردج المعروفين باسم الأفلاطونيين
الجديد *Néo-Platoniciens* (١) ، و « كادورث » والآخرين ، الذين يدعون بعث
الأفكار . لا توجد أفكار غريزية . ففكرة الأبدية ليست غريزية ؛ ولا فكرة

(١) *Néo-Platoniciens* مذهب فلسفي ظهر في الاسكندرية في القرن الثالث بعد
المسيح ، وكان من أبطاله فلوطن *Plotin* وبورفير . . . وهذا المذهب يخالط أفكار أفلاطون
ببعض أفكار صوفية . [المترجمان]

اللامتناهي ، ولا فكرة الماثلة ، ولا فكرة الكل ولا فكرة الجزء ، ولا فكرة العبادة ، ولا فكرة الله . حين يبدأ المخلوق في الحياة ، من المستحيل أن نميز فيه تلك الحقائق المزعومة التي لا ندري من أين جاءت ، ولعلها مخترعات تفكير نظري قد اتخذ صوراً عديدة ، من يوناني إلى مدرسي وحديث ، ولكنه لم يقدم لنا سوى كلمات . فلنطرح تلك الأشباح . إن الفكر لوحدة ييضاء تنتظر نقش الحروف عليها ؛ إنه غرفة مظلمة تنتظر وصول أشعة الشمس .

هناك عنصر إيجابي يكفي لبناء كل شيء من جديد : الاحساس . إنه يأتى من الخارج ، يصدم الفكر ، ويوقظه ، وسرعان ما يملؤه . وهو يقدم لنا أكثر الأفكار تركيباً وتجرداً مما ينتج من عمل النفس على أساس معارفها الذاتية ، بعد ترتيبها والوصل بينها . بالاحساس ، لا شيء أسهل من بناء نظرية عن المعرفة ، بديهية كانت أو بيانية ، تهى لنا يقيناً ثابتاً مكيناً . فالنسبة لم تعد بين الفاعل والموضوع (أى النفس والأشياء) ، بل هى أبسط من ذلك بكثير ، بين الفاعل والفاعل (أى النفس والنفس) ؛ وبذا ، لم يعد الكفاح ضد أسباب الضلال إلا مسألة داخلية ، اتخذ بعض التحولات والاحتفاظ بها . سادام العقل ليس له موضوع آخر لتفكيره واستدلالة إلا أفكاره الخاصة ، وهى الشيء الوحيد الذى يتأمل أو يستطيع أن يتأمل فيه ، فانه بديهى أن كل معرفتنا لا تستند إلا على أفكارنا . . . » يبدو لى أن المعرفة ليست إلا إدراك ما بين فكرتين من أفكارنا من اتفاق أو اختلاف . . . » حتى إن علمنا ، علمنا البشرى ، محتمل كل الاحتمال ومؤكد كل التوكيد فى نفس الوقت .

فلنسلم للوك بمبدئه هذا عن الاحساس الغرزي ، نجده على الفور يعيد بناء علم الأخلاق من جديد . نحن نشعر بالمتعة وبالألم ، ومن هنا نكتسب فكرة المفيد والمضر ، وتتبعها فكرة المباح والمحرم ، وبالتالي فكرة أخلاق لا تستند إلا على حقائق سيكولوجية ، أخلاق لها لنفس هذا السبب يقينية ، لم تكن لتتوافر فيها لو أنها قامت على بعض التزام خارجي . فبما أن اليقين ليس إلا إدراك ما فى أفكارنا من تناسب وتنافر ، وبما أن البيان ليس إلا إدراك هذا التناسب باستعمال أفكار وسيطة : وبما أن أفكارنا الأخلاقية — كالحقائق الرياضية سواء بسواء — مجردات يؤلفها الفكر ؛ فلا يوجد فرق نوعي بين هذه وتلك والاثنان أكيدتان .

هكذا يستعاض ، رويداً رويداً ، عن الوضع الدجاطيقى بنظرية تقوم على التجربة ، تكشف وتسجل كل أفعال حياتنا السيكولوجية . ما أصل اللغة ؟ هل وضع الله فينا ذلك الترجمان الاعجازى ببعض أسباب من مشيئته ؟ نحن لا نعرف عن هذا شيئاً ، ولكننا نعرف جيداً أن للانسان أعضاء مهمتها النطق بأصوات مفصلة ، وأنه يترجم بفضل تلك الأصوات ، عن التبدلات التى تشعر بها حساسيته ، وأن الكلمات تصبح علامات خاصة ، ثم عامة للأفكار . هذه كل البلاغة وهذا كل فن الكتابة ؛ فليكنف الناس عن التحدث إلينا عن أبحاث فى الأسلوب أو فى فن الشعر ، مالم تستند على هذه الملاحظات البسيطة . إن الكاتب الذى يعرف مصدر الكلمات ومهمتها ، سوف يتجنب استعمال الكلمات التى لا تتضمن أى فكرة واضحة ؛ وسوف يستعملها بشكل ثابت ، وإلا خلط بين الأفكار التى ليست هذه الكلمات غير علامات لها ، وسوف يتجنب الخدق والدهاء والتفخيم : ذلك التغيرير . بما أن المقصود من اللغة هو أن ندخل أفكارنا فى ذهن الغير ، فالذى يجيد الكتابة ، ويجيد الكلام هو من يستعمل وسائل الأسلوب فى هذا الغرض . فالنحو نفسه ليس من عمل بعض العلماء الأدعياء ، الذين يفرضون أهواءهم على تلامذة مساكين ، بل له منطقته الخاص ، ويجب إقامته على أساس الاحساس .

لأن يشاهد الانسان نضج التفكير البشرى ، وفى نفس الوقت قيام العقائد التى تتيح له حياة سعيدة ، واعيّاً أنه لا شئ إلا ويتولد من أفعاله الخاصة سواء فى ذلك العلم أو الاخلاق أو الفن : أهنالك منظر أجدر من ذلك بتهيئة الاهتمام والسعادة والزهو للمشاهدين ؟ ولا نقصد زهو ذلك الذى يتحدى الآلهة ، مادمنّا لا نستطيع أن نعد من يعترف بجهله ، ويرضى هذا الاستسلام الهائل ، من بين الموقفين ، إلا إذا ضحينا وصغرنا من شأنهم . وإنما نقصد الابتهاج الذى يشعر به رجل كان مشرفاً على الغرق فى الأغوار ، ثم توصل إلى الشاطئ فبنى كوخاً بيديه الحكيمتين القديرتين . إن العنوان الذى اختاره لوك يبدو متواضعاً ؛ فالأمر لا يتعلق إلا « بمقال » Essay ؛ ولكنه مقال عن الإدراك الانسانى : عجيبة العجائب . إنه يتضمن مبدأين فقط : تأثيرات الأشياء الخارجية على الحواس ، وعمل الروح الذى يتلو هذه التأثيرات . وهذه المبادئ ، إذا وقفنا على نشاطها ، ودرسناها وحللناها ،

تكفى لاشباع حب استطلاعنا ؛ إلى هذه الدرجة تأتى بالمعجزات ، وإنها لمعجزات حقيقية . سيتوالى كثير من العلماء قبل أن نعرف على التحقيق ما الارادة ، والذكريات ، وصور الخيال . إن الادراك منجم لا يفرغ ، يعطى معدنا صافيا ، صفته لا تخدع . « عندما يتعمق الناس البحث إلى أبعد مما تسمح لهم مقدرتهم ، مستسلمين في عرض ذلك المحيط الواسع حيث لا يجدون قاعاً ولا شاطئاً ، فلا عجب أن يكثر من الأسئلة ، ويضاعفوا المشاكل التي لا نفع لها بما أنها لا يمكن أن تجد حلاً واضحاً اللهم إلا اضطراد شكوكهم وازديادها ، ووقوعهم آخر الأمر في ارتياب محض . » وبالعكس ، « إن معرفة عقلنا وحدوده تكفى لعلاج الارتياب والاهمال الذي نستسلم إليه عندما نشك في مقدرتنا على كشف اليقين . »

يمدح لنا بيير كوست التوفيق الذي لاقاه مؤلف الأستاذ ، في المقدمة التي دمجها للطبعة الثانية باللغة الفرنسية : « مقال فلسفى عن الادراك الانسانى » (١٧٢٩) : « إنه أروج مؤلف لواحد من أعظم العباقرة الذين ظهوروا في انجلترا في خلال القرن الأخير . لقد نشرت منه في حياة لوك أربع طبعات بالانجليزية خلال عشر سنوات ، وبما أن الترجمة الفرنسية التي نشرتها في ١٧٠٠ جعلته معروفا في هولاندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا ، فقد اشتهر في هذه البلاد شهرته في انجلترا ، إذ لم ينقطع الناس عن التعجب مما يسود هذا الكتاب من أوله إلى آخره من عمق وسعة معلومات ودقة ووضوح . وأخيراً فان مما يرفع هذا الكتاب إلى ذروة مجده ، مالقى من تقدير في أكسفورد وفي كمبريدج ، حيث يدرسونه ويشرحونه للشباب كأصلح كتاب لتهديب عقولهم وتنظيم وتوسيع معارفهم ؛ حتى إن لوك يحتل الآن مكان أرسطو وأشهر شراحه في هاتين الجامعتين الشهيرتين . »

إن رواج كتاب فلسفى لمغامرة فكرية كبيرة على الدوام : أما رواج كتاب لوك فقد تم بسرعة لم يسبق لها مثيل . لقد استفاد لوك من الوسطاء الذين أوجدتهم تحت تصرفه . التبدلات التي حدثت في أوروبا . وكان صحيفو هولاندا أول من نادوا بشهرته ؛ وعلى الأخص جان لى كاير ، في « المكتبة العالمية » :

مقتطفات من كتاب انجليزى لم يظهر بعد ، عنوانه مقال فلسفى عن الادراك الانسانى ، يشرح فيه المؤلف مدى معارفنا الأكيدة وكيفية الوصول إليها . « هناك منفيان ، أحدهما دافيد مازيل ، والثانى بيير كوست الذى لم ينقطع الناس عن ذكره كأنه ظل للمؤلف — فسر أحدهما تفكيره السياسى والثانى تفكيره الفلسفى . مات لوك فى عام ١٧٠٤ ؛ ومنذ عام ١٧١٠ قدمت ترجمة « مؤلفاته المختلفة » إلى الجمهور الفرنسى جوهر ما كتبه . وفى ألمانيا ، قرأ توماسيوس « المقال الفلسفى » نحو عام ١٧٠٠ ، فجعل منه هذا الكتاب أحد المبشرين بعهد الأنوار : إن لوك يقف فى منحى الطرق الأوروبية التى تقود إلى العصر الجديد .

والحق أن تفكيره قد تعرض لبعض التبدلات . فمهما كان مذهبه يقوم على التجربة والحس ، فانه أوحى مع ذلك بمشلية بركى Idéalisme (١) : وعلى كل ، فان ذلك لا يعد أكبر مغامراته غير المنطقية ؛ لأننا ، إذا صرفنا النظر عن النقطة التى بدأ منها ، وعشنا فى داخل نظريته الفلسفية ، لوجدنا أنفسنا لا فى عالم الحقائق بل فى عالم النسب والصلات . لم يرد ، بأى ثمن كان ، أن يدمجه الناس مع الماديين ، بل كان على النقيض يؤكد وجود كائن أبدي ، جوهر مفكر ، لا حد لحكمته ؛ وكان فى بيانه المذهب الدقيق صفة من الاصرار بل من التعاضم ؛ إذ يثبت فيه أن المادة لا يمكن أن تشترك فى الأبدية مع روح أبدية (٢) . ولكنه قال عرضاً — وكأنا قد فتنته الفكرة التى كونها عن عظمة الله وجلاله — إن الله كان فى قدرته ، على كل حال ، أن يعطى « لبعض كتلة من المادة — إذا وجد ذلك مناسباً — قدرة الادراك والتفكير ... (٣) » وكانت هفوة ، هاجمها اللاهوتيون فى الحال ، هفوة استشفها فولتير (٤) واستغلها ، وأذاعها ، حتى انتهت إلى تأويل معكوس

(١) مذهب فلسفى يعتبر الأشياء صوراً عقلية لا أجساماً مادية . [الترجمان]

(٢) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ١ .

(٣) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ٣ .

(٤) قولتير : قال لوك بكل تواضع : « لعلنا لن نستطيع أن نعرف ما إذا كان مخلوق مادي صرف يفكر أو لا يفكر . » ... مثل المعتقدين بالخرافات فى المجتمع مثل الجبناء فى الجيش يمتلكهم الرعب بلا داع . لقد صاحوا إن لوك يريد أن يقلب الدين =

لمؤلفه كله : أصبح لوك مادياً برغمه . لكنه كان يريد أن يكون مسيحياً ، وكان التمييز بين العقل والايان مما يشغله كثيراً : ففائدة العقل « كشف اليقين أو أرجحية المحمولات والحقائق التي يتوصل إليها الذهن باستنباط مستمد من الأفكار التي يكتسبها باستعمال مقدراته الطبيعية أى بالاحساس أو بالتفكير » — أما الايمان فهو « تقبل كل قول لا يستند هكذا على استنباط العقل بل على الثقة بقائله ، على تقدير أنه يأتي من قبل الله ببعض اتصال خارق للعادة . هذه الطريقة في كشف الحقائق للناس هي ما نسميها بالوحي » . إذن فقد كان مؤمناً بالوحي ، بالرسالة الالهية للمسيح ، بسلطة الانجيل ، بالمعجزات ؛ كان يعتقد أن أشد الناس وسوسة ، وأغرقهم في الارتياب ، لا يمكن أن تخالجهم ذرة شك في الوحي الانجيلي : وهذه كانت ألفاظه بالذات . ولكن بما أنه كان — من جهة أخرى — يلخص العقيدة إلى نهاية صغرى : الايمان بالمسيح والتوبة ؛ وأنه كان يقول إنه لا يشترط شرط آخر لانقاذ الأرواح إلا قبول رسالة المسيح ، والتزام سلوك طيب ؛ وبما أنه كان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدي لا نهائي من أجل خطيئة الرجل الأول ، الذي لم يسمع عنه قط ملايين من الناس : فقد كانوا إذ ذاك يعدونه بين ناكري الوحي ويشبهونه بتولاند ، ويضعون مؤلفه « المسيحية المعقولة *Christianisme raisonnable* » بجانب « المسيحية دون أسرار » : وكان ذلك يؤله أعمق الألم ، لأنه إنما كان يقصد على التحقيق أن يرد الايمان إلى أولئك الذين نبذوا الدين بفعل آلية التقاليد وغموض العقائد وتباين المذاهب ؛ ولأنه إنما كان يريد أن يثبت أن الدين الطبيعي لا يكفي في ذاته ؛ ولأنه أخيراً إنما كان على التحقيق يريد إخماد المعترفين بالله الناكرين للوحي ، Deistes ، المتذرعين في إنكاره بالمبادئ العقلية .

== رأساً على عقب ... لكن الأمر لم يكن يتعلق بالدين قط في هذه المسألة ؛ بل كانت المسألة فلسفية محضة مستقلة قطعاً عن الايمان والوحي . ما كان علينا إلا أن نفحص بلا مراة ما إذا كان هناك تناقض بين قولنا : تستطيع المادة أن تفكر ، وقولنا : إن الله يستطيع أن يعطي التفكير للمادة . لكن اللاهوتيون يقولون في الغالب إننا نهين الله لو لم نكن على رأيهم ... « رسالات فلسفية » ، رسالة ١٣ عن لوك — والقاموس الفلسفي لقولتين : باب الروح « *sur M. Locke* ، *Lettres Philosophiques* » . [المترجمان]

هذه هي عواقب ومحذورات تفكير لم يكن متنسقا على الدوام — تفكير هيا الفرص باختياره لمخالفه ، ولكنه بالرغم من التفسيرات الخاطئة ، والانحراف والتيارات المضادة ، استمر مؤلفه يعمل في اتجاه كان من السهل إدراكه . ظل لوك الرجل الذى يدعو الحكماء ألا يزرعوا إلا في حديقته . حقيقة للزراعة : هل يحتاج الانسان إلى أكثر من ذلك لى يتوهم أنه فى الفردوس ؟ أو على الأقل لىروح عن نفسه ، وليجد بواعث على الحياة ؟ — ظل لوك على الأخص الرجل الذى لفت الأنظار إلى ألزم لعبة وفى نفس الوقت أمتعها : السيكلوجى . دراسة محركات العقل البشرى ؛ والملاحظة والفهم بدلا من الحكم والادانة : إنه لعمل ومتعة تناو لها كوندillac ، فالايديولوجيون (علماء الأفكار والتصورات) ، ثم تاين Taine بالصقل والتهديب ، حتى وصلتنا ولا زالت تشغلنا وتسحرنا .

الفصل الثانى

الاعتراف بالله وإنكار الوحي^(١) — والدين الطبيعى

هناك أيضاً إحدى الصلات القوية العديدة ، التى تربط ما بين النهضة والزمن الذى ندرسه ربطاً مباشراً . لقد أتى هذا المذهب — الاعتراف بالله وإنكار الوحي — من إيطاليا ومن ثم هاجر إلى فرنسا منذ القرن السادس عشر حيث استقر ؛ ذلك لأنه اتخذ هناك عناوينه الصريحة القاطعة ، ولأن بياناته توالى بلا انقطاع محاولة إيضاح وتحديد كيانه الغامض . واستبان كثيراً فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، ثم لم يعد يعيش إلا فى الظلال . ولكن فرعاً إنجليزياً انفصل عن الشجرة الأصلية ؛ كتب إدوارد هربرت ، بارون دى شربرى ، فى باريس عام ١٦٣٤ ، إقراراً بمبادئ هذا المذهب ، لا يحمل مسحة الإنكار والتجديف ، بل الاحترام والتقوى وشئ من التصوف « إني أنبهك من البداية ، أيها القارئ العزيز إلى أنى لست أقدم لك حقائق الإيمان ، بل حقائق الإدراك . . . » لا ريب فى ذلك . بيد أن هناك حقائق دينية يتقبلها الإدراك ، وتلك كانت طبيعة المبادئ المذهبية للبارون هربرت دى شربرى : هناك قدرة سامية — يجب أن نعبد لها ؛ ومباشرة الفضيلة جزء من العبادة التى يؤديها الناس لله ؛ وبالتوبة نكفر عن الجرائم والطغيان ؛ وسيلقى الإنسان بعد هذه الحياة العقاب أو الثواب .

ولما انتقل هذا المذهب إلى إنجلترا ، ازداد وازدهر فى هذا الوسط الجديد . إذ وجد الأرض والسماء التى توافقه ، فهو يشعر كأنه فى بيته . واحتدمت المعارك ، علناً ، كأنما على قارعة الطريق ، بين محبذيه ومعارضيه . وذهب به تولاند إلى أقصى درجات المغالاة فى التعصب . وقام ضده بنتلى وبركلى

وكلارك وبتلر ووار برتون يدافعون عن الدين المنزل : والخلاصة أنه ، « ما من بلد تحدد فيه الدين الطبيعي واثضح أكثر من إنجلترا . . . (١) »
 وبعد حين ، عندما يتقاذف الأفكار المد والجزر ، ستتقبل فرنسا الدييزم (٢) من جديد ، إذ سيبدو لها موثقي بصفة أجنبية . سيقتبس فولتير منه فلسفته الدينية ، وسيصور جان جاك روسو ، في شخص اللورد إدوار بومستون (٣) ، الرجل « الديست » المثالي ، رجلا ماديا وفاضلا في نفس الوقت . ولكننا لم نصل بعد إلى زمن تمجيده ، بل مازلنا في الوقت الذي يكافح فيه ليثبت أقدامه . ويسير علينا أن ندرك صفاته السلبية : « لا ينبغي أن نعصب أنفسنا ؛ فما من شيء يخالف ذوق عصرنا أكثر من ذلك (٤) » . كان هناك دين يرغمنا ، دين كاثوليكي أو بروتستانتي أو يهودي ، والناس يوقفون هذا الارغام . لم يعد أي قسيس أو راهب أو حاخام يدعى الاستحواذ على السلطة . لم تعد هناك أسرار مقدسة ، ولا شعائر ، أو صيام ، أو تعذيب للنفس ؛ ولا إلزام بالحضور إلى الكنيسة ، أو المعبد . لم يعد للكتاب المقدس قيمة خارقة للطبيعة ؛ لم تعد هناك أسفار ، ولا وصايا . لقد دخل الدييزم في دائرة التسهيلات المتزايدة التي يقتضيها الزمن . بدل الناس من صورة الله ؛ فهم لا يريدون غضبه ، ولا انتقامه ، ولا حتى تدخله في سير الأمور البشرية . فلم يعد الله يبدو مضيقا ، بل أصبح بعيدا متواريا . إن معنى الخطيئة ، ولزوم الغفران ، والارتياح في شأن السلام ، التي طالما عكرت صفو الضمائر على مر العصور ، لم تعد تقلق أبناء الناس . ولكن ترى ما هي الصفات الإيجابية للدييزم ؟

إذا كان الدييزم ينكر إله إسرائيل ، إله إبراهيم ويعقوب فهو على

-
- (١) المكتبة الانجليزية ، ١٧١٧ القسم الأول ، ٣١٨ .
 (٢) من أجل ضرورات الترجمة اضطررنا إلى استعمال كلمة « الدييزم » محل « مذهب التعترفين بالله الناكرين للوحي »
 (٣) Lord Bomston صديق سان برو Saint-Preux في رواية جوليا Julie أو (هيلوينز الجديدة) . القصة التي أكسبت روسو شهرة لم يكن لها مثيل . [المترجم]
 (٤) الأب بوفيه Buffier نبأى الميتافيزيقا في تناول الجميع ١٧٢٥ ص ٢٠

الأقل لا يزال يعتقد بوجود إله . وإذا كان ينكر الدين المنزل ، فهو على الأقل لم يرد أن تكون السماء فضاء خالياً ، ولم يرض أن يجعل الانسان وحده مقياساً للكون . حتى إنك لترى في بعض الأحيان تعبيراً أقل جفاء أو نعتاً أرق حاشية ، ينزلق بين الكلمات التي كان الكاثوليك والهوجونوت والانجليكان يؤخذون بها أنصار الدييزم : كرجال يشتركون في العقيدة الأولى والأخيرة ، مع نفس الذين يناقضونهم : الايمان بالله . انظر كيف يتكلم ميشيل لى فاسور القسيس (بجمعية الأوراتوار) الذي أراد أن يدافع عن شرف الجمعية الثالثة من موقف ريشارد سيمون ، فنشر في هذا الغرض في عام ١٦٨٨ مؤلفاً ضخماً «عن الدين الحقيقى» : «بعض أنصار الدييزم الذين هم أكثر حكمة وبصيرة من أعضاء الأكاديمية والأبيقوريين ، يعترفون بسلامة نية بأن هناك مبادئ دينية وأخلاقاً طبيعية ، على الرجل أن يتبعها . ولكنهم يضيفون أن هذه المبادئ كافية وأننا لسنا في حاجة إلى الوحي ولا إلى الشريعة ليعرفنا بواجباتنا نحو الله ونحو إخواننا . وإننا لنستطيع أن نسير بفضل العقل ؛ وسيرضى الله دائماً ، إذا تبعنا المشاعر الدينية والأخلاقية التي بثها في نفوسنا . . . (١)» هكذا يرى هذا المادح الكاثوليكي ، أن بعض أنصار الدييزم (بعضهم ، لأن الفئة تتضمن أنواعاً جذ مختلفة) — لا يمثلون إنكاراً مطلقاً ، بقدر ما يمثلون انحرافاً مؤسفاً .

ولنأخذ الآن رأى البروتستانت . لقد خصص العالم روبرت بويل ، الذي يجزئه سريان عدم التصديق ، ريع منزل يملكه في لندن لمؤتمرات سنوية قد حملت اسمه : مؤتمرات دينية ، لا تقصد تأجيج النزاع بين المذاهب — بل تقوية المبادئ العامة للايمان : «تبيان البراهين التي تؤيد صحة الدين المسيحي ، والدود عنها ضد هجوم غير المؤمنين ، مثل الكفار ، وأنصار الدييزم والوثنيين واليهود والمسلمين ، ودون مساس بأوجه الخلاف بين المذاهب المختلفة للمسيحية .» لقد لقيت «محاضرات بويل» Boyle Lectures نجاحاً عظيماً ؛ ودعى للاشتراك فيها أكبر رجال اللاهوت في إنجلترا وأصبح الخطباء ، وكان بينهم صامويل كلارك ، الراهب إذ ذاك في أسقفية نورويتش ، والذي

نال مرتين شرف الاشتراك في هذه المحاضرات في عام ١٧٠٤ وفي عام ١٧٠٥ فإذا يقول عن أنصار الدييزم ؟ إنهم أربعة أنواع . أولئك الذين يتظاهرون بالايمان بوجود كائن أبدي ، لامتناه ، مستقل عاقل ، ولكنهم ينكرون العناية الالهية . — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، ولكنهم يزعمون أن الله لا يبالى بأفعال الانسان ، طيبة كانت خلقياً أو سيئة ؛ فالأفعال لاتعد طيبة أو سيئة إلا بمقتضى قوانين بشرية وضعت بطريقة تعسفية — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، وبالصفة الالزامية للخلق ، ولكنهم لا يعتقدون بخلود الروح وبالأخرة .

« وهناك نوع آخر من أنصار الدييزم لديهم — من كل النواحي — أفكار سليمة وصحيحة عن الله وعن صفاته كافة . إنهم يفاخرون بالايمان بوجود كائن واحد ، أبدي ، لامتناه ، عاقل ، قادر على كل شئ ، كامل الحكمة ، خالق ، حفيظ ، هو السيد المطلق على الكون . . . »

إن أسلوب صامويل كلارك هنا شبيه بأسلوب ميشيل لى فاسور : إن بعض المعتدلين من أنصار الدييزم مازالوا يحتفظون بعناصر دين إيجابي ؛ لكنهم لسوء الحظ ينكرون الوحي .

والآن ، إذا سألنا رجلاً مدنياً ، لا دينياً — مثل درايدن Dryden اللبق الرقيق — فهل نخطئ في ظننا أننا نجد في أشعاره بعض الادانة ؟ ولكنها إدانة مخففة وكأنها مشفقة ، لأنه واع أنه لا يزال هناك شئ من التدين لدى عدد كبير من أنصار الدييزم .

صادف درايدن أنصار الدييزم أولئك ، في تتبعه للفلاسفة الذين عبروا عن رأيهم فيما يخص الخير الأسمى Summum bonum ووصفهم كما يلي :

« يعتقد نصير الدييزم أنه يقف على أرض ثابتة ، أوريكاً (١) ! لقد

(١) *Eureka* : لفظ يوناني معناه « وجدتها ! » وكلمة أصبحت مشهورة ، وهى التى صاح بها أرشميدس لما كشف فجأة — وهو يستحم — قانون الأجسام الطافية (نظرية الماء المزاح) . وكان أرشميدس يفكر فى ذلك الوقت فيما كلفه به الملك هيرون — ملك سيراكوز — أى فى تحليل سن من الذهب مشتببه فى خلطها بالفضة . فوجد فى أثناء استحمامه — أن أعضاء جسمه تفقد من وزنها حين يغطس فى الماء ، وترفع الماء أى تزيج به كمية تتناسب مع الوزن ... كان هذا ضوءاً قاده إلى كشف تلك القاعدة التى اشتهرت باسمه : وخرج من الحمام وطار فى الطريق يصيح : أوريكاً : أوريكاً !... وجدتها... وجدتها ! [المترجمان]

انكشف السر الأعظم ! — إن الله مصدر الخير ، المصدر السامي الكامل — أما نحن فقد خلقنا للخدمة ، وسعادتنا في خدمته — فإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أصول للعبادة — توزعها السماء على كل الناس بالقسطاس — ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الله مغرضا ولكان البعض يحرم — من الوسائل التي من العدل أن يفيئها على الجميع — وقوام هذه العبادة الشاملة حمد الله ، والابتغال إليه — واقتراض الحسنة منه ، ثم ردها — وحينما تنزلق طبيعتنا الضعيفة في الخطيئة ، — يكون التكفير في التوبة — ومع ذلك ، فما دسنا نشهد أن العناية الالهية — توزع خيراتها ، في تفاوت ، على الجنس البشري — ومادامت الرذيلة تنتصر في هذه الدنيا بينما تذوى الفضيلة — (عار ولاشك ، لا يستطيع العدل السامي أن يتحملة) — فان عقلنا يوجهنا إلى حالة مستقبلية حيث تستبين كل طرق الله الصالحة — استئناف سام ضد الحظ وضد القدر — سوف يعاقب الأشرار وسوف يجزي الأخيار — هكذا سيصعد المرء بفضل قدرته الخاصة إلى السماء ، — دون أن يكون ملزما قبل الله بالتزام آخر . . . (١) »
فأنصار الدييزم الذين يصفهم درايدن على هذا المنوال عقليون ، لكنهم عقليون ، يشعرون بحنين إلى الدين .

فالديزم ، — كما يتبين لنا من كتب ذلك الوقت ، يضعف فكرة الله : ولكنه لا يمحوها . إنه يجعل الله موضع عقيدة غير معينة ، ولكنها إيجابية . وهذا يكفي لكي يحتفظ أشياعه بشعور من التفوق على إخوانهم الأشرار ، الكفار ؛ يكفي لكي يصلوا لله ويعبدوه ، لكيلا يشعروا أنهم منعزلون ، ضائعون ، يتامى ؛ ويكفي لكي يجد رعاة سافويا فيما بعد (٢) ، Les Vicaires Savoyards عندما

(١) الدين الدنيوي *Religio laïci* ، ١٦٨٢ ، الفقرات من ٤٢ إلى ٦٣ .

(٢) إشارة إلى مؤلف جان جاك روسو « إقرار بالآيمان الخوري من سكان سافويا » *Profession de Foi du Vicaire Savoyard* وهذا الاقرار من أبداع صفحات كتابه المشهور « إميل » — الجزء الرابع — يشرح فيه على لسان راهب أفكاره الفلسفية والدينية ويدرس المسألة الدينية من حيث صلتها بالأخلاق والسعادة ، ويبين لنا لزوم دين شخصي يقوم على أساس مشاهد الطبيعة وعلى أساس (الروح الالهية) التي يكشفها المرء لا بعقله بل بالحبس والضمير . لذلك يعد « الاقرار » هجوما على المادية والكفر وليس هجوما على التقاليد المسيحية . ولقد كتبه روسو في أسلوب قوى جميل حتى أصبح كتابه يعد من أروع صفحات الأدب الفرنسي ، وحتى أصبح « الاقرار بالآيمان » إنجيلا =

تضى الشمس جبالهم ، سرتلك المكاشفة القلبية ، ويؤمنوا من جديد بالدسوع . إنه لعسير على المرء أن يكفر بالله في قسوة ووحشية ، ويسير عليه جدا أن يؤمن بالله وينكر الوحي . إن العصيان التام ، الانكار المطلق يتطلب شخصيات غير عادية . يقول بايل « لافرق تقريباً بين الكفار وأشياع الدييزم ، لو فحصنا الأسور بالدقة » . ولكن ما أكثر المعانى التى يمكننا أن نضمنها تلك الكلمة « تقريباً » ! ويقول بونالد : « إن نصير الدييزم لم يتح له بعد الوقت الكافى ليكون كافراً » . أما نحن ، فيخيل إلينا ، بالعكس ، أنه رجل لم يشأ أن يكون كافراً . لا عجب أن ينضج الدييزم فى بلد اعتاد سكانه إيقاف تفكيرهم عند النقطة التى يريدونها ؛ حيث يحطمون فيه قوة المذهب إذا زاد عن حده وأصبح خطراً يهدد أخلاق الشعب . فلنصدق بشهادة معاصر : « يعد الانجليز دائماً شعباً على استعداد طيب لقبول مشاعر الدين والفضيلة ؛ وبالرغم من أننا لا يسعنا إلا أن ندهش لما نراه من تقدم الكفر والرديلة بيننا ، إلا أن أسلى أن ذلك لن يكون إلا مرضاً مؤقتاً ، لأنه لا يتفق وعبقريّة هذا الشعب (١) » . إن عبقرية الشعب لا تتعجب ولا تتأثر من تحديد اختياري ، أو من تناقض . السماح لدين دون أسرار ! إن الشعب يترك السر ويحتفظ بالدين . فالتفكير عند الانجليز ليس مسألة منطق فحسب ، بل مسألة إرادة أيضاً .

إن أشياع الدييزم يحتفظون بجانب ذلك — بفكرة الازعان لقانون :
قانون الطبيعة .

== لأشياعه . قال عنه فيكتور كوزان V. Cousin إنه أفخم مؤلف فى القرن الثامن عشر ، ويقول بيير تراهار P. Trahard فى مؤلفه : « أساتذة الحساسية الفرنسية » إنه سيأتى يوم يظهر فيه جان جاك روسو فى نظر الكنيسة كرسول بعثته السماء لينقذ من الدين ما يمكن إنقاذه . أما عن جملة « عند ما تضى الشمس جبالهم » فإن راهب سافويا يحدث زميله فوق جبل مرتفع بالقرب من جبال الألب ، فى يوم من أيام الصيف ، حينما تضى الشمس قمم الجبال بأشعتها الساطعة... عن « الاقرار بالايان » أنظر كتاب بيير سوريس ماسون : « دين جان جاك روسو » ، الجزء الثانى ، P. M. Masson, *La Religion de* [الترجمان] J. J. Rousseau, Hachette, 3. Vol., 1916.

(١) ريشارد بلاكمور : مقال عن موضوعات عديدة ، ١٧١٦ ، الجزء الأول .

كان الكاثوليك يعترفون بوجود هذا القانون : *Est in hominibus lex quaedam naturalis participatio videlicet legis aeternae, secundum (١) quam bonum et malum discernunt* : يوجد في قلوب الناس شيء من القانون الطبيعي ، أي اشتراك في القانون الأبدى ، الذي يفرقون به بين الخير والشر . . . وكان البروتستانت يعترفون أيضاً بهذا القانون بكل رضا ، لأنهم كانوا أقرب من الكاثوليك إلى المذهب العقلي ، ولأنهم كانوا أكثر استعداداً لأن يقطعوا جزءاً من الطريق بجانب الفلاسفة ، سواء لاقتناعهم ، أو للزوم التوفيق بين الدفاع عن الدين ومقتضيات الزمان . ولم يكن العون الذي يقدمه لهم الدييزم هنا يستحق الاستخفاف : لأن في ذلك العون مقداراً معادلاً من الفوز على الكفار ، الذين ستأخذهم الدهشة والارتباك .

ولكن لا يكاد الناس ينظرون في فكرة « الطبيعة » هذه عن كשב ، حتى تظهر آراء مختلفة لا يمكن إنكارها . وكانت على الأقل ثلاثة آراء . أول شيء لم يستطع الكاثوليك ولا البروتستانت أن يقبلوه ، هو أن هذه الطبيعة الجريئة ، — بدلاً من أن تقنع بكيانها وليدة السبعة الأيام ، وأن تدعى بجمالها « للذي » استخرجها من الفناء — تستبدل بمكانها رويداً مكان الخالق ؛ تصبح وسيطاً له ، بل تعمل نيابة عنه ، بل تصبح النظام نفسه ، ذلك النظام السامي الذي يجب على الله أن يجاريه ؛ وأن تصبح « الكائن » : لقد رأينا فيما سبق بأي استنكار استقبل تفكير سينوزا .

والشيء الثاني الذي لم يستطع المؤمنون أن يقبلوه ، هو أن تكون الطبيعة نوعاً من الغريزة الأخلاقية تستطيع أن تقوم وحدها مقام الدين بأكمله ؛ فلا يكون الدين حينئذ إلا صلة بين القوانين الطبيعية والانسان ، ولا شيء غير ذلك .

والشيء الثالث : إذا اعتقدنا أن الطبيعة « أم رءوم » كما يقول لاهوتان ؛ أو كما يقول شفتسبري : *Nature has no malice* ؛ وأنه يكفي لعمل الخير

(١) القديس توما الأكويني Saint Thomas d'Aquin في كتابه المشهور : *Summa theologica* ويعد هذا القديس أشهر لاهوتي كاثوليكى وأكبر فلاسفة المسيحية في القرن الثالث عشر . [المترجمان]

أن تتبع القوانين الطبيعية : فما رأى في الخطيئة الأصلية وما تلاها من فساد ؟ وماذا يعنى لزوم تخليصنا ؟ أفلا تكون الحياة إذن امتحاناً مؤقتاً نكافح في أثناؤه ضد المبادئ السيئة التي نحملها في أنفسنا ، حتى نحظى بالجنة ؟ ما هي الطبيعة ؟ لقد عرض هذا السؤال بكل ما فيه من شدة — كما عرضت إذ ذاك كل الأسئلة الأخرى — لأولئك الشجعان الذين لم يسمحوا — أيّاً كان الحزب الذى ينتمون إليه — بالالتجاء إلى الحيل أو اللف والدوران. لأنهم كانوا يتحرقون إلى الحقيقة ، وكانوا جميعاً يكافحون في سبيل النور . كلما صعبت المسائل بدت لهم جديرة بالفحص . ما هي الطبيعة ؟ — سرعان ما تحققوا من أن هذه الكلمة قد اتخذت مختلف المعانى ، وبذا ، كانت تسبب « لبساً فظيعاً في كلام الجهال وفي كلام العلماء على السواء » . إن الطبيعة حكيمة . إن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً . إن الطبيعة لا تتجاوز غايتها أبداً . إن الطبيعة تفعل الأصوب دائماً . إن الطبيعة تسلك أقصر طريق . إن الطبيعة لا تبدو أبداً مسرفة فيما لا لزوم له ، ولا عاجزة فيما يلزم ويفيد . إن الطبيعة حافظة بذاتها . إن الطبيعة تعالج الشرور . إن الطبيعة تحرص دائماً على حفظ الكون . إن الطبيعة تكره الفراغ . . . ما أكثر تلك الأمثال السائرة التي لا صلة بينها ولا مناسبة ! وما أكثر التفسيرات المتناقضة غير المناسبة ، التي تتعلق كلها بموضوع واحد : خالق الطبيعة ، جوهر شئ ، نظام الأشياء ، شئ مثل نصف إله ، وغير ذلك كثير (١) .

لم يستطع الناس التوصل إلى اتفاق ، ليس أكثر من قبل ، ولا أكثر من بعد . ولكن هذا كان مثاراً لألهم . إن روبرت بويل — الذى أشار إلى هذا الارتباك في الألفاظ التي ذكرناها ، والذى رجا أن يحاول الناس إدخال بعض النظام على الطرق المختلفة لتفسير هذه الكلمات ، — لم يكن يبحث عن تعريف قطعى ، بقدر ما كان يعبر عن احتجاج ضمير مسيحي ، مخافة أن تنتشر بين الناس عادة ابدال الله بالطبيعة ، واحتج بويل ضد الفكرة السخيفة — التي كان من حظها أن تنال نجاحاً غريباً فيما بعد — فكرة أن الناس طيبون بطبيعتهم . الطبيعة ؟ أولاً لم يلاحظ أحد المشاعر التي تولدها في قلوب الناس

(١) روبرت بويل ، عن الطبيعة ... لندن ١٦٨٦ ، Robert Boyle, *De ispa Natura*, sive libera in receptam naturae notionem disquisitio, Londini, 1686

بالضبط . « لا توجد كلمة نستعملها بطريقة سيئة أكثر من كلمة « طبيعة » . إنها تدخل في كل أنواع الكلام ، حيناً في معنى ، وحيناً آخر في معنى غيره ، ولم تتوقف أبداً عند فكرة معينة . ولكن مهما كان الأمر ، فإني أعتقد أن أولئك الذين يجيدون التفلسف سيترفون بأنه ينبغي أولاً — لكي نتأكد عما إذا كان هذا الشيء أو ذاك موحى به إلينا من الطبيعة — أن نعرف ما إذا كان الفتيان يعرفونه دون مساعدة أى تعليم . ولا أظن أننا لم نجر تجارب لمعرفة ماذا يحدث في ذهن رجل لم يتعلم شيئاً بعد . لو أننا ربينا عدداً من الأطفال ، بمعرفة أشخاص يكتبون بتغذيتهم ، دون أن يعلموهم أى شيء ، لعرفنا ما تستطيع الطبيعة أن تفعل وحدها ، ولكننا لا نعرف إلا أشخاصاً تعهدناهم منذ المهد وجعلناهم يعتقدون بكل ما نريده » — ثم إننا لا نكاد نفتتح عيوننا ونسرحها فيما حولنا ، حتى نضطر إلى الاعتراف بأن « طبيعة » و « طيبة » ليستا مترادفتين « إننا نرى في الجنس البشرى أشياء بالغة السوء . مع أن أحداً لا يستطيع أن يشك في أنها من فعل الطبيعة . . . أرى أن أنقى الآباء وأكثرهم ميلاً إلى تربية أبنائهم طبقاً للمبادئ الانجيلية ، لا يستطيعون أن ينجحوا في كبت الميل إلى الانتقام ، وإلى النفاق ، وإلى المقامرة وإلى الفحشاء . . . (١) » أو كما يقول أيضاً : « أنبهم إلى أن شربوك يفترض أن الارتضاء العام للجنس البشرى هو صوت الطبيعة ، ولذا فهو صفة أكيدة لليقين . وإذا كان هذا يثبت شيئاً فأنما يثبت أنه إذا أمكن أن نجعل شيئاً كصوت للطبيعة ، فهو أنه ينبغي أن نلتزم ، وأن نشبع شهواتنا الحيوانية تماماً كما نرضى الجوع والعطش . . . (٢) » إذن ، لم يكن ليكفى أن يتكلم الناس عن الطبيعة ليظنوا أنهم قد وصلوا إلى مصدر الطيبة ، مصدر الفضيلة . . .

إلا أن أشياع الديينزم كانوا يقنعون بالاعتقاد بأنهم يعملون مختارين في اتجاه القوة الغامضة التي تضمن حفظ الكون ونظامه . ولما كانوا يعبدون إلهاً بلا أسرار ، فقد كان يخيّل إليهم أنهم يذعنون لقانون إيجابي . بل كانوا

(١) بيلر بايل : جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثاني ، الفصل ١٠٥ .

(٢) بيلر بايل : جواب على أسئلة قروى : عما هو بالضبط شيء يصدر عن الطبيعة . وعما إذا كان يكفي لكي نحكم على حسن شيء ، — أن نعرف أن الطبيعة هي التي أرشدتنا إليه — الفصل ١١١ .

يعتقدون أحياناً أن الأديان المنزلة هي التي تسمى إلى الاله الحقيقي ، بإبدال « فكرته » بصور ليست طبيعية بل مصطنعة ، ألفها رجال مغرضون ، خادعون ، واستمرت بفضل الخرافة .

لقد تكون بين أشياع الديييزم مذهب ، « مذهب جديد من العقول القوية أو قوم يفكرون في حرية (١) » .
أنظر كيف يستدلون . إنهم يعرفون حرية التفكير بأنها : « إباحة استعمال العقل لمحاولة الوقوف على معنى قول أيا كان ، بوزن وضوح البراهين التي تدعمه أو تناقضه ، بمقدار درجة قوتها » . إلا أن محكمة الضمير هذه لا تحكم دائماً بالادانة — بل تقبل أى شهادة ترى فيها كفاية من الصحة ، وتقبل أى واقع يتفق مع قواعد الوضوح والصراحة . إن المفكر الحر Le libre-penseur ينبذ ما يبدو له باطلاً ويحتفظ بما يبدو له صحيحاً ، فهو بعيد عن أن يكون ارتيايياً ، بل يؤمن بقوة العقل الفعالة ، قوام الحقيقة والعدل .
هنا سر القوة النفسانية التي تحركه : إنه يثق ويرتاح للتفكير في أنه يملك مبدأ من الصحة والبداهة ، بحيث يبدو له مستحيلاً أن يضيف إليه شيئاً آخر ، يوضح صحته في ضوء أقوى : فانه أدرك السر الكبير الذي لن يدركه الضعاف . إنه يجد متعة في تكرار الصيغة السحرية التي تقنعه باقتداره على الناس وعلى الأشياء : « إنى أفكر في حرية » . ما من أحد في الدنيا لم يخطئ ، أما هو فلم يعد يخطئ أبداً ؛ بل إنه — في نهاية الفحص الدقيق الذي يمتحن به كل شئ يعرض لبصره ولذهنه ، — يكشف الحق والخير ، جزاء على جراته التي هيأت له أن يتخلص من الخرافة . إن توكيدات العقلية تمدده بالراحة

(١) أنطوني كولنز : مقال عن حرية التفكير لندن ١٧١٣ ، Anthony Collins, *A Discourse of Free-thinking, London, 1713* . — مقال عن التفكير الحر ، بمناسبة مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية — مترجم عن الإنجليزية ، لندن ١٧١٤ . مقال عن حرية التفكير ، والاستدلال في أهم المواد ، كتب بمناسبة اتساع مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية ، ترجم عن الإنجليزية ، الطبعة الثانية ، لندن ١٧١٧ .

والسعادة التي كان المؤمنون يجدونها فيما سبق في الايمان : إن العقل لا يخيب ، ولا يخيب أملاك : Neque decipitur ratio, neque decipit unquam فكروا في حرية ، وستفوزون بالباقي ، فكروا في حرية ، تأكلوا من فاكهة شجرة المعرفة . أما الجبناء والعبيد فسيتيقنون في الظلام ، خارج الفردوس . « لا شئ يخالف الصواب أكثر من الظن أنه من الخطر أن نسمح للناس بحرية الفحص في أسس الآراء المكتسبة ؛ ولا شئ يخالف الصواب أكثر من الشك في حسن نوايا أولئك الذين يستعملون هذه الحرية . فالى أن يجد الناس دليلاً أفضل من العقل ، من الواجب عليهم أن يتبعوا هذا النور إلى كل مكان يقودهم إليه » .

فالتفكير الحر سعادة في ذاته ، وهو فضلاً عن ذلك ، وسيلة لتنظيم الحياة في اتجاه السعادة . إنه بفضل التفكير — ولا شئ غيره — يستطيع الناس أن يصلوا إلى معرفة الحياة البشرية تمام المعرفة ، وأن يقتنعوا بأن البؤس والشقاء عواقب الرذيلة ، بينما المتعة والحياة السعيدة دائماً ثمرة الفضيلة . كان شيشرون مقتنعاً بذلك تماماً لما امتدح سعادة الرجل الذي يقوم بواجباته في مرح ، والذي ينظم كل أفعاله باعتناء ، والذي لا يطيع القانون لأنه يخشاه ، بل لأنه يجده رائعاً في ذاته . فالفكر الحر يشعر بأنه لا يصغى إلا لارادته المستنيرة ، وللقوة المنطقية التي توجد في عقله : إنه سيد نفسه كما هو سيد الكون .

كان أنطوني كولينز أول من أعلن هذه التعريفات عن التفكير الحر ؛ أولاً في المجادلات ، ثم بشئ من التفصيل في مقاله المشهور عن التفكير الحر : *Discourse of free thinking* في عام ١٧١٣ . حينئذ اكتسب لفظ *The Free thinker* ولفظ *Le libre-penseur* حقوق الرعوية بين الناس . كان هناك رجل مذهب gentleman شهد له الناس بذلك ، كان فيما سبق تلميذاً في إيتون ، ثم درس في كبردج ، يمتلك — كما يقول لوك — منزلاً في الريف ، ومكتبة في المدينة ، وأصدقاء في كل مكان ، ولا مأخذ على حياته ، ينطق بالوقار *Respectability* الذي يعده مواطنوه الفضيلة الاجتماعية الأولى ؛ كان هناك رجل مذهب ، ليرث التركة المهوشة التي خلفها المتحررون وأشياع الدييزم ، وليستخلص الرغبات والمبادئ التي تتضمنها ويوضحها . كان المفكرون الأحرار قد بدأوا في ذلك الوقت يمثلون البدع والذوق الحسن ؛ يرثون لحال المؤمنين

من كل نوع — الذين لم يزل لهم العدد والنفوذ — ويسخرون منهم . يخاطب أنطوني كولينز صامويل كلارك بلهجة كلها احتقار : إن صامويل كلارك أورثوذوكسى ، وهذا يكفى للحكم عليه . « الشئ الذى أدهشنى من السيد كلارك ، — الشئ الذى لم أتوقعه منه والذى قرأته فى دفاعه — أنه يشتبه فى أنى قليل الايمان . إن كل شخص يستطيع أن يكون آراء من هذا القبيل ، ويشير شكوكا لا تشرف مشيرها ، ولا تلقى عند القارى الشريف البصير إلا أسوأ القبول . لست أعتقد أنى ملزم بتبرئة نفسى من شك لا يقوم على أى دليل ، ولن أرد على هذا إلا باستشهادى بأورثوذوكسية السيد كلارك . وعلى ذلك أستأذنه ، مؤكداً للجمهور أنه لا يؤمن فى كثير ولا قليل ، وأنه أورثوذوكسى تماماً ، وأنه سيبقى أورثوذوكسياً طوال عمره . هذا هو التطور الذى حدا بالناس إلى أن يجعلوا الأورثوذوكس ، لا قوما عاجزين عن التفكير بأنفسهم ، أو عقولا متأخرة فحسب ، بل أشخاصاً يعوقون التقدم ؛ وإلى أن يجعلوا المفكرين الأحرار ، لا قوما يفكرون تفكيراً صائباً فحسب ، بل عقولا تشارك مشاركة إيجابية فى خير المجتمع . لم يعد بمقدور أحد أن ينعى على أولئك الأخيرين أنهم متحررون متهورون ، أنانيون ، شهوانيون ، أو أنهم صعاليك لا حساب لهم ، أفاقون ، ساقطون . إن مفكراً حراً مثل أنطوني كولينز مثال يحتذى لطهارة الأخلاق واللباقة التى ترفعه حتى فى نظر خصومه المتعدين .

إن كولينز يملأ مقاله عن « التفكير الحر » بالنفى والانكار ، ولكن أيضاً بالحزم والتوكيد ، مهاجماً أمامه مباشرة ، فى عناد ، دون اهتمام بتفاوت المعانى الذى لا يزعج ذهنه أبداً — لسبب واضح وهو أنه يجهله — ودون التعرض لحجج خصومه . إنه يبدل العلامات : فيضع علامات سلبية محل العلامات الايجابية ، أو العكس : فيقول مثلاً إن الضرورة مبدأ من مبادئ الحرية ، وإن المادية تحقق انتصار الفكر . تداول الناس منذ عام ١٧١٤ ، لما كان لويس الرابع عشر لا يزال على قيد الحياة ، ترجمة فرنسية لكتابه ؛ وراجت ، مادامت قد نالت شرف الطبع مرة ثانية فى ١٧١٧ . يقول لنا المترجم إن لها أهمية عالمية . إلا أن البعض ادعى أن هذا الكتاب إنما كتب للإنجليز ، وأنه يقتضى تفسيراً واسعاً لكى يفهمه الأجانب . ولذلك فلا يحتمل

انتشاره إذا ترجم إلى لغة أخرى . وفي هذا القول خطأ مبين ! — « فاليقين والتفكير والعقل لا وطن لها بل تخص الجميع » — « إن جوهر هذا المقال بهم كل الشعوب » . ولننوه هنا — وليس هذا موضع الغرابة الوحيد — بأن كولينز يغمر معبد « التفكير الحر » بالقديسين . يجب أن يقدس عبادة العقل العظماء الذين شاركوا على مر العصور ، في تأسيس المذهب الجديد : — سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأبيقور ، وفلوطرخس ، وفارون ، وكاتون ، وشيشرون ، وسنيكا ، وسليمان ، والأنبياء ، والمؤرخ يوسف ، وأريجين ، وفلكس ، ولورد باكون ، وهوبز ، بل حتى سنسيوس أسقف أفريقيا والأسقف تيلوتسون : الذي ولو أنه كان في الحقيقة مادحا للمسيحية ، إلا أن سواعظه كانت ترمي إلى دعم « حرية التفكير » مصحوبة بالدين والفضيلة ، وهي ما تشارك مزاولتها في سلام المجتمع ورفاهته . إلا أن كولينز كان في مقدوره أن يضيف إلى أولئك المفكرين الأحرار الذين يشيد بفضائلهم ، عدة أبطال آخرين ، ولكنه يكفي بذكر أسمائهم مخافة الاسهاب ، ويعد من بينهم إيرازم ، وسونتاني ، وسكاليجر ، وديكارت ، وغاسندي ، وجروسيوس ، وهربرت شربري ، وسلتون ، وسارشام ، وسبنسر ، وتدورت ، وتمبل ، ولوك . ويختم قائلاً إنه من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نذكر رجلاً قد استاز بعقله السليم وبفضيلته ، وخلف أثراً طيباً ، دون أن نعترف في نفس الوقت أنه ترك لنا دلائل على « حرية تفكيره » . وبالمثل لا نستطيع أن نذكر عدواً « لحرية التفكير » ، مهما كانت منزلته إلا ويكون متعصباً أو مضطرب العقل ؛ أو يبدو جشعاً ، غير إنساني ، كله رذائل شنيعة ؛ والخلاصة أنه لا بد من أن يكون على استعداد دائم لأن يقدم على كل شيء بدعوى أنه يعمل في سبيل الله وتمجيد الكنيسة ، وأن يخلف آثار جهله العميق ووحشيته ، وأخيراً أن يكون عبداً للقسس ، والنساء أو المال ...

ولا يقتصر الأمر على القديسين المدنيين . بل إن تأسيس جمعية فكرية ، ووضع سراسيم وأصول تسمح بالتعرف على الأشياء وجمعهم ، والعودة إلى الاحتفال بالشعائر والطقوس ؛ هي الرغبة التي نشهدها في نهاية التطور الذي تبعدنا سيره من لحظة .

يقول سويفت : من يستطيع أن يرى في تولاند فيلسوفا ، إذا حرمانه من موضوعه الوحيد ، وهو كره المسيحية ؟ يصل الأمر بتولاند إلى تنظيم جمعية تجابه الكنيسة ، بدافع كرهه للمسيحية ، ويؤلف ترنيمة ، لا لتمجيد الألوهية ، بل لتمجيد الفلسفة ، ولكنها ترنيمة على كل حال : أيتها الفلسفة ، أنت دليل حياتنا ، تقودينا إلى الفضيلة وتطردنا عن كل رذيلة ! ماذا كنا نصبح ، وماذا كان يصبح كل الناس في أثناء حياتهم ، لولا عونك ؟ — أنت التي شددت المدائن ، وجمعت الناس المتفرقين ووحدتهم في مجتمع . . . أنت التي اخترعت القوانين ، ولقننا قاعدة أخلاقنا وعلمتنا النظام . إليك نلتجئ . لأن يوماً واحداً نحميه طبقاً لمبادئك أفضل من الخلود . . . أى عون ننشده غير عونك ، أنت التي منحتنا الطمأنينة في الحياة ، وأنقذتنا من رهبة الموت ؟ . . .

وهو يعلن كراهيته لكل نوع من أنواع العبادة التي يزاوئها الناس : ومع ذلك ، يعرض دستوراً لجمعية جديدة ، سوف يكون الناس بفضلها أحسن وأعقل ، وسوف تهيمهم المرح وترفعهم إلى أوج السرور . إن محبته للجنس البشرى تدفعه إلى تأسيس جمعية « سقراطية » ، يضع أخلاقها ومبادئها ، وفلسفتها . وسيعقد أعضاء هذه الجمعية اجتماعات سرية ؛ فيها أغان ، وولائم ونبذ ، حيث يستعملون الصيغ الكنسية . رئيس ينطق بالأشعار ويرد عليه الأشياء . لندخل لحظة ، في أثر جون تولاند ، إلى قاعة اجتماع أولئك الاخوان ، ولنصغ إليهم :

الرئيس :

— لكي نكون سعداء .

يجيب الحاضرون :

— نؤسس جمعية سقراطية .

الرئيس :

— فلتزدهر الفلسفة .

جواب :

— مع الفنون الحرة .

الرئيس :

— صه ! فليكرس هذا الاجتماع وكل ما فيه من تفكير ، وقول ، وعمل ،
في سبيل أهداف الحكماء : في سبيل اليقين ، والحرية ، والصحة .

جواب :

— فليكن ذلك على مر الأزمان .

الرئيس :

— لنعلن أنفسنا أنداداً وإخواناً .

جواب :

— وأيضاً شركاء وأصدقاء . . .

حتى إن الرجل الذي كان أشد الناس تحاملاً على الكنيسة ، يبني معبده
أمام أبصارنا . فلنذكر أن المحفل الماسوني الانجليزى الأكبر تأسس في عام
١٧١٧ ، وأن أول محفل فرنسى تأسس في عام ١٧٢٥ .

الفصل الثالث

القانون الطبيعي

كان هناك القانون الالهي .

وكان هذا القانون ، كما كان الدين — يبدو واضحاً وعظيماً . كانت السياسة تستند على نفس الأقوال المقتبسة من الكتاب المقدس : وهل أمتن من ذلك ؟ « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتعجب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك (١) » . إن محبة الله تجبر الناس على محبة بعضهم بعضاً ، وهكذا يتولد المجتمع . وأول صور السلطان هي السلطة الأبوية ؛ والملكية التي تخلفها ، هي أشيع أنظمة الحكم ، وأقدمها ، وأكثرها تمشياً مع الطبيعة ، لأن الناس بحالتهم الأصلية رعية ؛ والسلطة الأبوية التي تعودهم الطاعة ، تعودهم في نفس الوقت ألا يكون لهم إلا رئيس واحد . إن الحكم الملكي هو النظام الأصح ؛ وأصلح الأنظمة الملكية هو الذي ينتقل بالتوريث والتتابع ، وعلى الأخص حين ينتقل من الذكر إلى الذكر ومن الأرشد إلى الأرشد (٢) .

هكذا يبني أسقف « مو » — مربي ولي العهد — بيديه ، المظلة التي تؤوى شخص الملك . إنه شخص مقدس ، وما من أحد في الدنيا يستطيع أن يمس سلطانه . ولا يعني هذا أن يكون الملك فوق كل قاعدة : بل يلزمه القانون الالهي بواجبات أقسى وأثقل من واجبات أقل الناس شأنًا . إن السلطة الملكية مقدسة ، ولكنها أبوية ؛ إنها مطلقة ، ولكنها تخضع للعقل ؛ إنها تطبق بمقتضى إرادة عامة ، لا بمقتضى أهواء ؛ فليرتعد من يملك هذه السلطة العظيمة ويسىء

(١) نص العهد القديم ، تثنية ، ٦ . [المترجمان]

(٢) بوسويه : سياسة مقتبسة من نفس كلام الكتاب المقدس ، ١٧٠٩ . Politique

استعمالها ، لأنه سيتلقى حساباً عسيراً يوم الحساب . أما والملك مسئول أمام الله ، فهو غير مسئول أمام رعاياه ؛ ليس ملزماً بأن يستشيرهم أو يتبع نصائحهم . والواقع أن نسبتنا إلى الملزمين بالطاعة قدرة فعالة تؤثر على الذين اصطفاهم الله للحكم ، مخالفة للمنطق ومخالفة للدين . وهذا المبدأ من القوة بحيث إن الشعوب لا تعفى من الخضوع حتى ولو جهر الملك بكفره ، أو أعمل الاضطهاد ؛ ليس لديهم سلاح ضد ظلم الأسراء إلا رفع العرائض ، دون عصيان أو تذمر ، بل بالدعاء لهدايتهم . إن الله يمسك من عليائه بزمam كل الممالك ؛ ويحكم الملوك رعاياهم وفق أهدافه الخفية ؛ وعلى الرعية أن تطيع دون تذمر ؛ أما الأحداث العابرة التي تفسد هذا الانسجام في الظاهر ، فسيتمضح لنا أنها تشارك فيه ، إذا نظرنا إليها لا بعيوننا بل ببصيرتنا ، وتمكنا من تفهمها في تسلسلها .

والآن إذا نحن بحثنا عن صورة لا تشوه هذه العظمة الساطعة ، وتناسب هذه الجلالة التي تفوق البشرية ، لوجدنا في الحال أمامنا صورة لويس الرابع عشر . إن هذه الصورة الملكية لا تفارق أذهاننا ، إنها تلاحقنا وراء الزمان ، وتلحق بنا ، إنها هنا ، إنها حية . وتذكر حافظتنا تلك الكلمات المشهورة التي نطق بها الملك ، حتى يخيل إلينا أننا نسمعه يقولها كما حدث في اليوم الذي سجل فيه بداية سلطته الشخصية : « الدولة أنا » *L'État, c'est moi* . ونحن نعرف أنه أراد أن يحقق كلمات هذا الشعار حرفياً : « ملك واحد ، إيمان واحد ، قانون واحد » ؛ وأنه حطم كل مقاومة ؛ ودافع ضد البابا نفسه — ذلك النوق الذي يقود سفينة الكنيسة — عن حقوق الربان الذي يحافظ على سلامة السفينة ؛ وكان هو الربان . إنه بطل الملكية . إننا نبحث عنه في فرسايل ، في الردهات والأنهاء ، ونتبعه في رواق المرايا ، بين رجال البلاط المنتهين لأدق حركاته وسكناته ؛ وحينما نترك عند حلول الليل طرق المتنزهات التي خططها إرادته السامية ، نتجه نحو القصر مؤملين أن نجد على إحدى النوافذ ، الظيل الذي يذكرنا به لابرويير *La Bruyère* : « هو بنفسه — إذا أبحت لنفسى القول — وزير لنفسه ؛ لا وقت لديه للراحة ، ولا ساعات خاصة ، لأنه أبداً معني بأمورنا . لقد تقدم الليل ، وتبدل الحراس في قصره ، ولعلت الأنجم في السماء ودارت في فلكها ؛ كل الطبيعة تستريح ، بعد عناء النهار ، يلفها

الظلام ؛ ونحن أيضاً نستريح ، بينما الملك ، قد أوى إلى مخدعه ، ساهراً علينا وعلى كل الدولة . . . »

من جهة أخرى ، لدعم الفكرة القائلة بأن السلطة كلها ترجع إلى الأمير ، كان هناك نظريات سادرة في الاتحاد ، توضح أنه لا يمكن حكم الناس إلا بمعاملتهم كما لو كانوا وسائل . مثل نظرية « ماكيافيللي » التي لم ينسها الناس بعد ، وإن بعد بها العهد . ومثل نظرية هوبز Hobbes ، وهي أقرب . لقد استكملت تلك النظرية الشرسة الوقحة ، الموضوعة من عام ١٦٤٢ ، صورتها النهائية في عام ١٦٥١ ، كما ظهرت في « اللويثان » Leviathan (١) . وفرضت نفسها على كل مفكرى أوروبا الذين اضطروا إلى أن يحسبوا لها حساباً ، حتى ولو ليفندوها . ولكم رأى الناس في أثناء تصفحهم لكتاب عن المذاهب اسم هوبز يظهر فيما بين السطور ! يا للدوى الذى أثارته أفكاره ! يا لها من أصداء رنانة أبداً !

كان هوبز يخاطب الناس قائلاً : — إنكم مفسطرون على الشر . ليس في الدنيا أى مبدأ روحانى ؛ لا خير غير المتعة ، ولا شر غير الألم ؛ ولا هدف غير المنفعة ؛ ولا حرية إلا عدم وجود ما يعوق الشهوة . بما أن مبدأ حفظ الحياة قوامه حب الذات ، ولما كان كل فرد يدافع عن حقه في الحياة ، فالحالة الطبيعية هي حالة القتال بين الناس ، أولئك الذئاب . « إن حالة الناس في هذه الحرية الطبيعية هي حالة الحرب ؛ لأن الحرب إن هي إلا الزمن الذى يعلن فيه العزم على القتال أو المقاومة بالقوة ، بالقول أو بالفعل . أما الزمن الذى لا حرب فيه فهو ما يدعى السلم » . أسيّج ذلك دمار الجنس البشرى ؟ . . . بالتأكيد ، لو لم نصطنع بعض الحيلة لمعالجة شرور الحالة الطبيعية ؛ لو لم نستبدل بالمساواة بين الناس نظاماً قوامه عدم المساواة ، إذ هو النظام الوحيد الذى يستطيع أن يحميهم من أنفسهم . من هنا يلزم تأسيس هيئة سياسية ، تحت سلطة أمير يجب أن يكون — بحكم الضرورة — طاغية .

(١) اللويثان : تأليف هوبز . وهو وحش مذكور في كتاب أيوب ، العهد القديم ، الأصحاح ١٤١ ، « أتصطاد لويثان بشص أو تضغط لسانه بجبل » . [المترجمان]

لن تستطيع المواثيق والأيمان إقامة السلام بين الناس ، لأنهم يخرقونها على الدوام ؛ ولا شئ يستطيع أن يكبح غرائز الناس الوحشية ، غير القوة والخوف الذى توحيه القوة : وعلى ذلك يجب أن ينقلد الملك سيفا للقتال وصولجانا للعدل . يجب أن تتركز فى شخصه كل الحقوق المطلقة ؛ إن تحديد سلطته بأحد مختبرات الديمقراطية ، كالمجالس ، يعنى تشجيع الفوضى ، والسقوط توا من جديد فى وهدة الحالة الطبيعية . إن الملك ليس مسئولا أمام أحد ؛ إنه فوق كل قانون، إنه الكل فى الكل . لا ريب أننا ننزل له عن الحرية ، التى تعزز بها الشعوب إلى حد ما . وماذا فى ذلك ؟ . . . مادامنا لا نستطيع التوفيق بين الحرية والحياة ، فالأفضل أن نختار الحياة . إن فن الانسان لا عجاز ؛ إنه نجح فى صنع حيوانات اصطناعية ، تماثيل آلية تمشى وتجلس وتحرك رأسها ، وتفتح فمها وتنقل عينها . وبالمثل ، نجح الانسان فى تشكيل مجتمع اصطناعى : آلة مروعة ، آلة أوتوماتيكية سياسية تقوم لحسن الحظ ، مقام المجتمع الطبيعى ؛ هذه الآلة الأوتوماتيكية تسمى « لويثان » . « إن المجتمع العالمى الذى أسميه لويثان ، رجل اصطناعى ، وبالرغم من أنه أقوى وأضخم من الرجل الطبيعى فهو مكلف بحايته وتأمينه . . . »

* * *

ستواجه هذه النظريات الواردة من مصادر شتى — ولكنها تلتقى عند مبدأ واحد هو مبدأ السلطة — نظريات أخرى ؛ ستبدأ معركة جديدة : إنها فى أول الأمر معركة المجردات ، ولكنها لا تخلو من جمال مؤثر . سترى الأفكار تتولد ، متهيبة ، ضعيفة ، ترفض لأول وهلة ؛ ثم نراها يشتد ساعدها . ولا تظل إحداها حبيسة فى موطنها الأصلى بل تطير وتجتاز الحدود ، تلك طبيعتها ، تلك حياتها . تبدو كأنها تحيا وتتقوى عندما تصل إلى آفاق جديدة . يهاجمها البعض بلا هوادة والبعض يدافع عنها ويوضحها بلا انقطاع ؛ فتتال نصراً يتلوه غزو ؛ حتى يأتى يوم تحس فى نفسها قوة تحفزها إلى احتلال مكان المبادئ التى ألهمت الماضى ، وقيادة الناس نحو مستقبل يأملون أن يكون أفضل . يتولد القانون الطبيعى من فلسفة : الفلسفة التى تنكر ما يخرق الطبيعة ، وما هو إلهى ، وتستبدل بفعل الله وإرادته الذاتية نظام الطبيعة ، القائم بنفسه .

ويصدر هذا القانون أيضاً من اتجاه عقلي يتحقق في دائرة النظام الاجتماعي : لكل كائن بشري أهلية تلتحم بتعريفه التحاماً وثيقاً ، يصحبها واجب مباشرتها وفقاً لماهيته . وأخيراً يصدر هذا القانون عن شعور هو : أن السلطة التي تنظم العلاقة بين الرعايا والأسير ، تنظيمياً تحكيمياً — في الداخل — والتي لا تؤدي إلا إلى الحروب في الخارج ، يتعين رفضها ، وإبدالها بقانون جديد لعله يوصل إلى السعادة : قانون سياسي ينظم علاقات الشعوب ، مع فكرة توليها مصائرهما بنفسها — قانون الشعوب . . .

القانون ، فلسفة الحياة ، قيمة اجتماعية ، قيمة عملية ؛ القانون ، جذور عميقة ، فروع كثيفة ، كيانه لا يتغير دون كبير عناء . هناك مؤلفات عظيمة مناضلة ، تقيم الأوتاد على طول الطريق . إن تتبعها ، مع ملاحظة تواريخها ، لمشاهدة لجهود جبار ، يزداد وعياً ، في كل مرحلة ، بالحقائق التي يسعى في أثرها .

١٦٢٥ — هوج دي جروت (١) : قانون الحرب والسلام

Hughes de Groot, *De jure belli et pacis*

إن الذي أعطى الإشارة الأولى ، هولاندي لاجئاً إلى باريس . ولما كان موفور الحس ، جهم المعرفة ، وافر الذكاء ، ويقف في طليعة المعارك السياسية وفي قلب المنازعات الدينية ، فقد كان يتألم من أجل القتال المستمر الذي يخرب أوروبا : « كنت أرى في العالم المسيحي إفراطاً في الحروب ، لو اقترفته الشعوب البربرية لكان مثيراً لحنجها ؛ فالناس يهرعون إلى السلاح لأتفه الأسباب أو دون أي سبب ، فاذا تناولوه لم يحترموا أي قانون ، لا القانون الإلهي ولا القانون الإنساني ، كأنما الغضب الجنوني ينطلق في طريق الجرائم بمقتضى قانون شامل . . . » جروسيوس هذا ، الذي جرت عليه أفكاره الاضطهاد ، هرب هروباً روائياً من السجن الذي سجنه فيه أعداؤه وانتقل إلى فرنسا : وقدم إلى لويس الثالث عشر في ١٦٢٥ كتابه « قانون الحرب

(١) أسم جروسيوس ، Hugo De Groot, dit Grotius . [المترجمان]

والسلام» ، كتاب عظيم ، يجهله الشعب ، كما هو دائماً شأن كل ما يؤثر في مصيره أعمق التأثير . من يدرس هذا الجزء من القانون الذى ينظم علائق الشعوب أو رؤساء الدول بعضهم ببعض ؟ لا أحد ، كما يقرر جروسيوس . بل يقول الناس عادة إن الحرب لا تتفق مع أى نوع من القانون ؛ وإنه ، لأسباب تقتضيها مصالح الدولة — أسباب اخترعها « ماكيافيللى » — يجب أن نفهم وأن نبیح كل غدر وكل عنف . وهذا غير صحيح ، فهناك قانون يبقى في أثناء الحرب بل يسود الحرب ، وهو القانون الطبيعى . والواقع أن الطبيعة قد نقشته في قلب الانسان ، الذى تريده اجتماعياً أنيساً ؛ لا شئ يستطيع أن يفوق هذا القانون العرفى ، هذا القانون الحيوى . — « لكى تكون الحرب عادلة ، ينبغى أن تقوم على روح الانصاف التى اعتدنا أن نراعيها في توزيع العدل . » — « في أثناء الحرب ، تبطل القوانين المدنية ؛ لكن لا تبطل القوانين العرفية التى تفرضها الطبيعة . »

وما القول في القانون الالهى ؟ يحاول جروسيوس أن يحميه . يقول : إن ما قلنا يسرى ، ولو فرضنا أن لا وجود لله (وهو ما لا يمكن تصوره دون جريمة) ، أو أن أمور البشر ليست محل عنايته . أما ولا شك في وجود الله والعناية الالهية ، فهناك منبعاً آخر للقانون ، غير الذى ينبثق من الطبيعة : القانون الذى يصدر عن إرادة الله . « إن القانون الطبيعى نفسه يمكن نسبته إلى الله ، مادام الله شاء أن يوجد في أنفسنا مبادئ مثل تلك المبادئ . » قانون الله ، قانون الطبيعة . . . هذه الصيغة المزدوجة ، لم يخترعها جروسيوس ، بل استعملت قبله بكثير ؛ إنها كانت معروفة في القرون الوسطى . أين إذن صفتها الجديدة ؟ ولأى سبب ينقدها الناس ، ويحرمها الأساتذة والآباء ؟ ولماذا تثير كل هذه الضجة ؟

وجه الجدة هو في التفرقة بين هذين اللفظين ، التى بدأت تتكشف ، وفي اختلافهما الذى يحاول أن يندعم ، وفي محاولة التوفيق بعد نفاذ السهم ، التى تفرض فكرة انفصام . وجه الجدة على الأخص هو الشعور الذى سبق ذكره — والذى كان غامضاً إذ ذاك وأصبح قوياً الآن : الحرب ، والقسوة ، والبليلة ، التى لا يكبحها قانون الله ، بل يبيحها ، بل يبررها بأغراض تسمو عن مداركنا ؛ فلعل قانوناً بشرياً يفلح في تخفيف كل هذه الشرور التى تقاسيها ،

وفي القضاء عليها . هكذا تنتقل ، — مع الاعتذار عن تلك الجراءة — من نظام العناية الالهية إلى نظام الانسانية .
وترجم هذا الكتاب ، وفسر ، وشرح ، في كليات القانون طوال القرن .

١٦٧٠ — سبينوزا : بحث لاهوتي سياسي ، *Tractatus theologico-politicus*

١٦٧٧ — الأخلاق ، *Éthique*

ظهرت فكرة أن الملوك دجالون ، يستغلون الدين في دعم سلطانهم الجائر ؛ ثم فكرة أخرى عميقة ، وهي أن : كل كائن لابد أن يجاهد للبقاء على كيانه . يكفي أن نذكر في هذا الصدد نص « علم الأخلاق » القسم الثالث ، الفرض السادس :

« كل شيء ، مهما كان ، يجاهد ، طالما له كيان ، للبقاء على كيانه . »

الاثبات — الواقع ، أن الأشياء الخاصة بحالات تعبر عن صفات الله بطريقة مؤكدة ومعينة . . . أى أشياء تعبر عن قدرة الله ، التي تبدل على وجوده ، وبها يؤثر بطريقة مؤكدة ومعينة . ولا شيء يحمل في ذاته دواعي دماره ، أى ما يقضى على وجوده . . . بل هو بالعكس يقاوم كل ما يستطيع أن يقضى على وجوده ، وبذا فهو يجاهد ، — طالما له كيان — للبقاء على كيانه . هذا هو ما كنا نريد تبينه .

١٦٧٢ — صامويل بوفندورف : ثمانية كتب عن القانون الطبيعي وقانون الشعوب

Samuel Pufendorf, *De jure naturae et gentium libri octo.*

١٦٧٣ — كتابان عن واجبات الانسان والمواطن طبقاً للقانون الطبيعي

De officio hominis et civis juxta legem naturalem libri duo

واصل المهمة ألماني — أستاذ في السويد — ووسم أثره الخالد على النظريات التي كانت تتكون في ذلك الوقت . كان صامويل بوفندورف أول أستاذ لقانون الطبيعة وقانون الشعوب ، في جامعة هايدلبرج . في ١٦٧٠ قيل دعوة .

شارل الحادى عشر ملك السويد ، الذى عرض عليه كرسى الأستاذية فى جامعة لوند Lund . — « واجب الانسان والمواطن » : ما أعجب هذا العنوان فى ذلك الوقت ! يخيل إلينا أنه يسبق زمنه بمائة سنة على الأقل ؛ ولو أننا سئلنا إلى أى تاريخ يرجع ، لما ترددنا فى أن ننسبه إلى لغة الثورة الفرنسية . الواقع أن هذا المؤلف يتضمن أفكاراً ، ستنتقل من ذهن إلى ذهن ، حتى تسيطر فيما بعد على ضمائر القرن التالى : — قيام التجرد الفلسفى محل التاريخ ، مادام يمكننا « أن نتدر أن أول رجل إنما هبط من الفضاء ، حاملاً نفس الميول التى يحملها الناس معهم اليوم عند ولادتهم » ؛ — والأخلاق الاجتماعية ، بتقدير أن الواجب « هو فعل بشرى يطابق تمام المطابقة القوانين التى تفرض علينا التزامه » ؛ — والميثاق السياسى . فالمجتمع المدنى — الذى خلف الحالة الطبيعية عن طريق الزواج ، والأسرة ، وتكوين كتلة سياسية — يقوم بالضرورة على اتفاقات : يتعاهد الأفراد على الاتحاد فى كتلة واحدة ، وعلى تنظيم أنفسهم ومصالحهم المشتركة بارتضاء إجماعى ؛ ويتعهد أولئك الذين يملكون السلطة العليا بالسهر على الأمن الجماعى والمصلحة العامة ؛ وفى نفس الوقت يعد الآخرون بطاعة خالصة .

بدأ القانون الطبيعى يتكون ويزداد قوة ؛ لم يعد يطالب بمكانه فى وسط الحروب فحسب ، بل يحتله قسراً فى التكوين السياسى للدول ؛ ويسود الحياة الاجتماعية : « إن قانون الطبيعة هو القانون الذى يوافق دائماً طبيعة الانسان الأنيسة والمنطقية ، حتى إنه لا يمكن أن يوجد فى الجنس البشرى ، دون مراعاة لمبادئه ، مجتمع شريف سالم . . . » لا ينكر بوفندورف القدرة الالهية ، ولكنه يبعدها إلى مجال آخر ؛ فهناك مجال العقل الصرف ومجال الوحي ؛ إذن هناك مجال القانون الطبيعى ومجال اللاهوت الأخلاقى ؛ مجال الواجبات التى نلتزم بها لأننا ندرك على ضوء العقل الطبيعى المستقيم ، أنها لازمة لارادة المجتمع البشرى ؛ ومجال الواجبات التى نلتزم بها لأن الله فرضها علينا فى الكتاب المقدس . إلا أن البراهين التى يقدها لاثبات أن هذه المجالات لا تتعارض بل يمكن أن تتوافق ، تبين لنا اختلافها العميق . إن اللاهوت يخص السماء ، والعقل الطبيعى يخص الأرض ؛ وبوفندورف لا ينظر إلا إلى الأرض : فالسما

تبدو له بعيدة جداً .

لقد أدرك قساوسة السويد خطر هذه القسمة ، أو بمعنى أصح خطر هذه المفاضلة الصريحة ؛ وقد حدثت حينئذ ضجة كبرى ضد عالم القانون الطبيعي ، حتى اضطر إلى الاستغاثة بالسلطات المدنية لكيلا يفقد وظيفته .
وحدث العكس ، فقد انتصر .

١٦٧٢ — ريشارد كامبرلاند : بحث فلسفي عن قانون الطبيعة

De legibus naturae disquisitio philosophica.

إنه يمثل مشاركة انجلترا في هذا السبيل : لقد فند ريشارد كامبرلاند ، أستاذ اللاهوت ، والأسقف فيما بعد ، مبادئ هوبز المردولة . فعلى أى أساس يستند ؟ على القانون الطبيعي ، الذى هو على التدقيق نقيض العنف الذى أشاد به كاتب اللويثان : « إن القوانين الطبيعية تتلخص فيما يلى : ينبغي أن نأخذ بالرفق كل كائن عاقل . . . »

إلا أن هذه الأرض العجوز ستقدم معونة فعالة أخرى ، حيث أصبحت المنازعات السياسية جزءاً متمماً للحياة الفكرية والأخلاقية والدينية للشعب ؛ وحيث كانت الملكية — التى لم ينقطع الحديث عنها طوال القرن السابع عشر ، والتى انقلبت ، ثم تأسست من جديد ، ثم انقلبت ثانية وتأسست من جديد ، وتغيرت في جوهرها — قد أصبحت موضوعاً لمجادلات حامية محتدمة ، أراد أن يشترك فيها البورجوازيون والنبلاء ، وليس الشعراء والفلاسفة فحسب ، بل حتى الملوك أنفسهم . ولكن الأمور لم تأخذ مجراها بتلك السرعة ؛ فعلى أن ننتظر قليلاً .

١٦٨٥ — فسخ أمر نانت

La Révocation de l'Édit de Nantes

ارتفع من فرنسا المكونة خارج فرنسا ، من الملاجىء المؤسسة في الأراضي الأجنبية ، صوت ينادى بالعصيان . والحق أن رجال الإصلاح ، حتى بعد الاضطهاد والنفي ، لم يعتقدوا أنهم في حل من يمين الولاء للملك ؛ ولم يسلوا

مشكلة الضمير التي عرضت لهم حلاً واحداً ، لأن بعضهم ظل يعتقد أنه بما أن القانون الإلهي هو أساس الطاعة نحو الأمير ، فإن أخطاء الأمير لا تمس سلطة الملك ، القائمة على الحق الإلهي . ولكن البعض منهم رفعوا عقائدهم منادين بمقاومة العنف بالعنف . ألقى جوريو ، سن ١٦٨٦ إلى ١٦٨٩ بمقالاته «رسائل رعوية إلى المؤمنين الذين يئنون في أسر بابل (١)» معلناً فيها الحق في العصيان : « إن استعمال سيف الأسراء لا يمتد إلى الضمائر » : لقد استعمل لويس الرابع عشر سيفه لاجبار الضمائر ، وبذا خرج على القانون : إن العصيان أصبح مشروعاً من الآن .

ولقد انصددم بوسويه عندما سمع بذلك التوكيد ، وكرس لتفنيدته مؤلفه « الانذار الخامس إلى البروتستانت عن رسائل القسيس جوريو ضد تاريخ التبدلات (١٦٩٠) : أساس الممالك الذي يقبله هذا القسيس (٢) . » — « ينشر السيد جوريو مبادئ مثيرة للفتنة ترمى إلى قلب كل الممالك وإلى تجريد كل السلطات التي وضعها الله . » يا للعجب ! لقد عانت الكنيسة المسيحية القديمة الاضطهاد دون عصيان ، وأنكر البروتستانت أنفسهم زمناً طويلاً أنهم تمردوا في فرنسا وفي إنجلترا على السلطة الملكية ؛ والآن يعلن جوريو أن لنا الحق في أن نحارب ملوكنا وأوطاننا ! إن روح العصيان هذه لشيء ممقوت . « أريد أن أثبت لكم أن إصلاحكم هذا ليس إصلاحاً مسيحياً ، لأنكم غير مخلصين لأسرائكم وأوطانكم . »

لكن الأمر ، لم يكن أمر مسألة بين البروتستانت والكاثوليك : بل تدخل القانون الطبيعي في اقتتالهما . استند جوريو على جروسيوس . وكان بوسويه يعرفه تمام المعرفة ؛ كان جروسيوس عالماً بحق وحسن النية ؛ ولكنه كان سوسنيانيا ؛ كان ذهنًا خطراً ، يخلط بين ما هو إلهي وما هو بشري . ماذا كان يريد أن يقول بقانونه الطبيعي ؟ إن تخيله أن الشعب كان سيبدأ مطلقاً بطبيعته ، معناه بلا شك أن الإنسانية — في حالتها البدائية — كانت

(١) *Lettres pastorales aux fidèles qui gémissent sous la captivité de Babylone*

(٢) *Cinquième avertissement aux protestants sur les lettres du ministre Jurieu*

contre l'Histoire des Variations, 1690: Le fondement des empires renversé par ce ministre.

لديها فكرة سلطة مطلقة تخصها ، وأن لها الحق في تفويض هذه السلطة إلى من تشاء . يا له من خطأ ! إن جروسيوس ، وجوريوس بعده ، يخطئان في المبادئ ولا يدركان معاني الألفاظ . فلنحذر الخطأ : بما أن حالة الانسانية البدائية كانت فوضى شنيعة وحشية ، ولم تكن أول الجماعات البشرية تشكل — كما يسمح لنا المنطق أن نفترض — شعباً بل قومياً رحلاً ، فكيف نتصور إذ ذاك سلطة مطلقة تكون شكلاً من أشكال الحكومة ؟ « من المستبعد أن يكون الشعب — في حالته هذه — سيداً مطلقاً ، بل لا يوجد شعب أصلاً في هذه الحالة . من المحتمل أنه كانت هناك أسر سيئة الإدارة وغير موطدة ؛ كما أنه من المحتمل أنه كانت هناك قبيلة ، كتلة من الناس ، خليط مهوش ؛ ولكن لا يمكن أن يكون هناك شعب ، لأن الشعب يفترض شيئاً يتضمن بعض السلوك المنظم وبعض القانون الموضوع ؛ وهو ما لا يحدث إلا لدى الذين بدأوا يخرجون من هذه الحالة التعسفة ، أي الفوضى » . لا يستطيع بوسويه أن يتصور أن الفوضى تفوض سلطة .

ومع ذلك فإن لويس الرابع عشر ، السلطان المطلق ، قد حكم عليه بصفته هذه ؛ كان يمثل في نظر الناس النظام القديم . ما أشد رد الفعل الذي حدث في داخل مملكته — فرنسا — ضد مبدأ سلطة لا يصادق عليها إلا الله ! المعارضون ، الذين قاموا بالبحث في الموائيق والقوانين القديمة ، عن مصادر الملكية ، مبينين اغتصابها ؛ والبارلمانيون العنيدون ، الذين دافعوا عن حقوق وامتيازات هيئاتهم الجلييلة ؛ والنبلاء الذين يطالبون بامتيازات أسراء الاقطاع في فرنسا Pairs ؛ بدأ الجميع ، بورجوازيين كانوا أو نبلاء ، منقادين كانوا أو عاصيين ، مجانين أو عقلاء ، يعبرون عن عدم رضاهم ، وعن غضبهم وعدم اضطبارهم على هذا النير ، في الكتب التي يطبعونها في هولندا ، وفي المخطوطات التي يتداولونها خفية تحت أرديتهم .

وفي الخارج ، افتضح لويس الرابع عشر ، كما قلنا من قبل . ولكن ، من وجهة نظر القانون ، بقي اعتراض بوسويه قائماً . إذا لم يكن البشر في حالة الطبيعة إلا قبيلة رحالة ، فكيف تولد قانون من تلك البلبلة البدائية ؟

١٦٨٨ — الثورة الانجليزية

طرد جاك الثانى ، الملك بنعمته تعالى ، من العرش ؛ وترجع وليم أورانج مكانه ؛ يقول المؤرخون إن الملك الجديد ، الذى توج فى وستمنستر فى ١١ أبريل ١٦٨٩ ، « يحكم بمقتضى حق لا يفترق فى شئ عن الحق الذى ينتخب كل مالك بمقتضاه نائب مقاطعته » ؛ وإنه قبل رقابة المجلسين ، وبذا حقق انتصار الحكم البرلماني ، وفقاً لميثاق مثالي أبرم بين الأمير ورعاياه .

أين كانت الأفكار التى نادى بها الأساتذة من فوق منابرهم ، والتى استوعبها الطلاب ، وأعلنتها الصحف العلمية ، والتى نوقشت ، ونوقضت ، ثم عادت واندعمت من جديد ، وغذت منذ جروسيوس جيلين متتابعين ؟ أين كانت الأفكار التى شرحها أساتذة الكنيسة ، ووضحها الفقهاء الرسميون ، والتى كانت تدعمها قوة التقاليد ؟ هل تقف تلك الأفكار جامدة ، بينما التجربة نفسها ، بينما الحدث الذى يقلق كل أوروبا ، يهيئ لها فرصة عظيمة للإعلان عن نفسها ، والمعارضة فى هذه المرحلة الحاسمة من قتلها ؟ لم يفت الناس الالتجاء إلى النظريات للدفاع عن حكم أسرة « ستوارت » المزعزع الأركان . لقد بعثوا من زوايا النسيان كتباً تثبت شرعية الحكم المطلق ، من بينها كتب مجادل قوى ، قد دافع فى منتصف القرن عن القضية الملكية بشجاعة . كان روبرت فلمر Robert Filmer يعظ بالخضوع والطاعة ، قائلاً إن حكومة مختلطة لا تؤدي إلا إلى البلبلة ، وإن الرعايا ليس لهم أى حق فى العصيان ؛ وإن هوبز كان مخطئاً فى مبادئه ، ولكنه كان مصيباً فى استنباطه ؛ وإن سلطة الملوك المطلقة ضرورة لا معدى عنها . لقد أصبح فلمر بدعة العصر ، بل طبع فى عام ١٦٨٠ — ثم مرة أخرى فى خلال السنوات التالية — المؤلف الخطير لذلك « الرجل العالم » ، تحت عنوان Patriarcha ، موضحاً وضوح النهار أن سلطة الملوك امتداد للسلطة الأبوية : لا يجرؤ ابن ، يخاف الله والناس ، أن يعق أباه .

لقد كذبت الوقائع مزاعم أشياخ جاك الثانى . وسيتقدم رجل ليخلع على الوقائع قيمة المبدأ الشامل .

١٦٨٩ — جون لوك : بحثان عن الحكومة

نكشف في الأول مبادئ السير روبرت فلمر وخلفائه الباطلة
وأسمهم المغلوطة ونقندھا . والثاني مقال عن مصادر الحكومة المدنية
ومدھا ومقاصدھا الحقيقية (١)

في نفس السفينة التي أفلعت من هولاندا ، حاملة وليم أورانج نحو إنجلترا
ونحو الثورة ، كان يرحل جون لوك ، فيلسوف الأزمان الحديثة . وهو الذي
سيستجيب في بحثه لدعوة الملكيين إلى القتال .

وهو في الواقع يردد الأفكار التي سبق أن سمعناها مراراً : ولكنه سيدفع
بها إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل ؛ ويلزمها بأن تثبت ، بسلسلة من الاستدلال
المنطقي ، شرعية الحق في العصيان . إنه يبدأ من حالة الطبيعة ، كما سبق أن
فعل بوفندورف ، وكما يفعل الجميع الآن ؛ فان هذه بدعة ، بل هوس . إن
حالة الطبيعة ليست حالة عنف ووحشية كما يدعى هوبز ، إلا أنها أيضاً لا تبلغ
مرتبة السكال . فالرجل يؤسس حالة اجتماعية ، علاجاً للشروخ التي تتضمنها
حالة الطبيعة ، ولكن دون أن يتبع نظام رب العائلة ، كما يزعم فلمر ؛ بل
يؤسسها بناء على ميثاق ، كما أثبت بوفندورف . فليعرف القراء ما يلي : «لا يوجد
مجتمع سياسي إلا حيث يتجرد كل عضو من سلطته الطبيعية ويضعها بين يدي
المجتمع ، لكي يستعملها في الأمور كافة ، على ألا يحول ذلك دون الالتجاء إلى
القوانين التي يضعها المجتمع . » إن الحكم المطلق ، الذي ينكر هذا الحق
في الاستئناف ، لا يتفق مطلقاً مع المجتمع المدني ؛ وإن الحق الإلهي ، الذي
يشيد به الأساتذة الكاثوليك ، لا يثبت بتاتاً سلطة رجل واحد على بقية
الناس . يجب أن تكون السلطة تحت الرقابة وأن تكون مجزأة ، كما هي الحال
في بريطانيا العظمى : تشريعية وتنفيذية . إذا لم تعمل السلطة التنفيذية طبقاً

Deux traités de gouvernement. Dans le premier, les faux principes et les (١) fondations erronées de Sir Robert Filmer et de ceux qui le suivent sont découverts et rejetés. Le second est un essai concernant l'Origine, l'Extension et la Fin véritable du gouvernement civil.

للاغراض التي أسست من أجلها ، وإذا اعتدت على حرية الشعب ، يجب سحبها من يد الذي يملكها . بل أكثر من ذلك : إذا رأى الرعايا أن الطاغية يعد الوسائل لاستعبادهم فليسبقوه ! فليمنعوه ، بواسطة عصيان علني ، من تحقيق نواياه السيئة !

كان لوك يرتب الأمور بفضل مزايا عبقريته العملية ؛ فكان يضيف إلى فكرة الطبيعة ، فكرة المدنية . وكان يبدو كأنما يرد مقدما على بوسويه . حقاً ، إن حالة الطبيعة تتضمن بعض المحذورات . وحقاً أيضاً ، إن التاريخ ، الذي لا يتصف بالغنى والدقة فيما يخص نشوء المجتمع ، كما نريده أن يكون ، لا يقدم لنا نماذج أكيدة ، بل فروضاً شبه حقيقية ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتصور على وجه التقريب كيف اضطر الناس إلى تفويض سلطتهم . هكذا : كان الناس بطبيعتهم أحراراً ؛ وكانوا في تأييد هذه الحرية ، قضاة ومحتكمين ؛ أما للدفاع عنها فعند من كانوا يستأنفون ؟ كان الناس بطبيعتهم سواسية ، ولكن ، لحماية هذه المساواة ضد الاغتصاب ، إلى من كانوا يختصمون ؟ لو أنهم لم يفوضوا سلطتهم إلى حكومة قادرة على الاحتفاظ بالحرية والمساواة الأولية ، لوقعوا في حالة حرب مستمرة . لم يكونوا قبيلة رحالة ، ولكن ، لولا احترازهم لأصبحوا كذلك . إن القانون الطبيعي يوحى بالقانون السياسي ، الذي يصون المزايا الطبيعية من أخطار الحياة العملية .

كما ظهرت صعوبة حاول لوك الحكيم أن يحلها بالحكمة . مثلاً : يصعب على الناس أن يضحوا بفكرة السلطة الأبوية ، الوسيطة بين الله والناس ، وأول صورة للسلطة الملكية . ويتدخل لوك ليشرح أن الأطفال لا يولدون « في » حالة مساواة تامة ، وإن كانوا يولدون « لأجل » هذه الحالة ؛ وأن الوالدين (الأب وكذا الأم) يملكان نوعاً من الولاية عليهم : الواقع أن الوالدين ملزمان بأعداد الأطفال للحرية ، طالما لم يبلغ الأطفال رشدهم . إذن فالسلطة الأبوية موجودة ، ولكنها غير مطلقة ، بل هي واجب أكثر منها سلطة ؛ لا يمكنها أن تسن قوانين ؛ وإذا أمكن افتراض أنه كان هناك ، في بداية الأزمان ، نظام رب العائلة ، فإن هذا النظام لم يكن يقوم إلا على رضا ضمنى من الأطفال .

لننظر الآن إلى الملكية : تلك المسألة الخطيرة . إنها لا تتفق مع المساواة الطبيعية كل الاتفاق . نرى ، بموجب العقل و بموجب الوحي معاً ، أن الله أهدى الأرض مشاعاً لكل الجنس البشرى : كيف نفسر إذن أن الأفراد استطاعوا أن يملكوا شرعاً جزءاً من هذا الرزق الجاعى ؟ — يتدخل لوك هنا أيضاً ويحيب : إن الملكية الفردية تفسر بالعمل . — « ومع أن الأرض وما عليها من خيرات مشاع بين الناس ، إلا أن كل فرد يتمتع بحق خاص على شخصه الذاتى ، الذى ليس لأحد آخر أن يدعى عليه أى حق كان . يمكننا أن نقول إن جهد جسمه وإنتاج يديه ، ماله الخاص . كل شئ يستخرجه من الطبيعة ، بفضل مجهوده وصناعته ، يملكه هو وحده . . . » إن الماء الذى ينبثق من تلك العين ملك لكل المارة ، ولكن إذا سالت منها جرتى ، من يجزؤ أن يقول إن ماء جرتى ليس ملكى ؟

كان لوك ينقض ويفسر ، وسيطاً بين الفقهاء والجمهور ؛ وسيطاً أيضاً بين الأزمان القديمة والأزمان الحديثة : محتفظاً من العقائد القديمة بما يكاد يكفى لثلا يدهش الضائر كل الدهشة ؛ ومكثراً من الجديد : لا حق إلهياً ؛ ولا حق فى الفتح : « يبعد أن تكون الفتوحات مضدراً أو أساساً للدول ، قدر ما يبعد أن يكون تدمير منزل السبب الحقيقى فى إنشاء منزل آخر فى نفس المكان . » فبفضل لوك ، كان شعاع الدستور الانجليزى ينعكس على الحق الطبيعى ؛ وفى نفس الوقت ، كان الحق الطبيعى يؤسس الدستور الانجليزى ؛ دستور عادل يتضمن برلماناً وملكاً اختارته الإرادة الأهلية . كان لوك يدخل الحق الطبيعى فى سياسة زمنه ، ويلده وجنسه ، وفضلاً عن ذلك ، كان يسجل صلاته بدين الإصلاح . فالحق الإلهى ، بمجرد زعمه أنه أساس الحكم المطلق ، لم يكن يبدو فوق الطبيعة ، بل مخالفاً للطبيعة ؛ ولم يكن تبرير الحكم المطلق ببعض إرادة إلهية مزعومة ، إلا اختراعاً حديثاً للاهوتيين الكاثوليك : « لم نسمع مطلقاً عن شئ مثل ذلك ، قبلما يكشف لنا علم اللاهوت فى هذا القرن الأخير عن ذلك السر الكبير . . . »

١٦٩٩ — مغامرات تليماك (١)

Les Aventures de Télémaque

الحق أن فينلون لا ينكر مبدأ الحق الإلهي . ولكن ، بين المشاعر والأفكار العديدة التي أعلنها هذا الكتاب المشهور ، المنتشر بين الصغار والكبار بآلاف وآلاف النسخ ، — يوجد على الأقل شعور واحد وفكرة واحدة يجب أن نعيها . شعور واحد : البغض ، كراهية لويس الرابع عشر . والموضوع ليس مجرد اعتراض نظري ، بل هو في الحق شعور ينفجر ، أو انفعال ستهم عام . — « هل بحثت بين الناس عن أبعدهم عن التفرغ ، وأصلحهم لمصارتك ؟ هل عانيت بأن تسمع كلام أناس لا تدفعهم أي رغبة إلى إرضائك ، وأبعدهم عن الوصولية في سلوكهم ، وأجدرهم بلومك على شهواتك ، وعلى مشاعرك المخالفة للعدل ؟ ولما وجدت منافقين ، هل صرفتهم عنك ؟ هل كنت تحترس منهم ؟ كلا ، كلا ، إنك لم تفعل البتة ما يفعله الذين يحبون الحق ، والجديرون بمعرفته . . . بينما كان العدو الخارجي يهدد مملكتك التي لا تزال مزعزعة ، لم تفكر في داخل عاصمتك الجديدة إلا في إنشاء المباني الفاخرة . . . إنك بددت مالك ؛ إنك لم تفكر لا في إنماء شعبك ولا في فلاحه الأراضي الخصبة . . . بل إن كبراً باطلا دفع بك إلى حافة الهاوية . ومن أجل رغبتك الملحة في التظاهر بالعظمة ، حطمت عظميتك الحقيقية . . . »

وفكرة واحدة : قيمة الشعب . « إن الآلهة لم تجعل منه ملكاً لشخصه بل لكي يكون رجل الشعب : إنه مدين للشعب بكل وقته ، بكل عنايته ، بكل عاطفته ؛ وإنه ليس جديراً بالملكية إلا بقدر ما يتناسى نفسه ، ويضحى بنفسه للصالح العام . . . » — « اعلم جيداً أنك لست ملكاً إلا بقدر ما لك

(١) كتاب ألفه فنيلون Fénelon لتعليم تلميذه دوق بورجوني de Bourgogne الذي أصبح ولي العهد في ١٧١١ . يصف فيه مغامرات تليماك لما رحل ، وهو ما يزال طفلاً ، باحثاً عن أبيه أو ليس ، أحد أبطال حرب طروادة . إنما المقصد من هذا التأليف — كما اعترف به فينلون — شرح الحقائق الضرورية لإدارة الدولة ، وعيوب السلطة المطلقة ؛ والتعليقات الأساسية التي تناسب أسيراً تؤهله ولادته للحكم . [الترجمان]

من شعب لتحكمه ... » بل أكثر من ذلك ! الشعب المكبوت لا رغبة له إلا في الانتقام من الملوك ، وحينئذ تأزف ساعة العصيان : « إن حكمه المطلق يخلق عدداً من العبيد بقدر ما له من رعايا . يتملقه الناس ، ويتظاهرون بعبادته ، ويرتعدون لأقل نظراته ؛ ولكن انتظر العصيان : لن تستمر هذه العظيمة الوحشية ، إذا تجاوزت الحد ؛ فلا سند في قلوب الشعب ؛ لقد أجهدت كل كيان الدولة وأثارتها ؛ إنها دفعت كل أعضاء الدولة إلى التلهف على تغيير الحال . فمن أول ضربة ينقلب ذلك الصنم المعبود ، ويتحطم ، ويقع مرذولا تحت أقدام الناس (١) » .

إن مملكة فرنسا تعاني تعاسة شديدة . من لا يعرف الفقرة التي وصف بها (لا برويير) حالة الفلاح بأسلوب روائي مؤلم (٢) ؟ ولعل ملاحظات لوك أقوى منها تأثيراً ، وإن كان لا ينظر مثله إلى التأثير : إنه يلاحظ أن الفلاحين يعيشون في جحور ، ويملكون ما يكاد يستر أجسادهم وما يقيم أودهم ، وبالرغم من تعاستهم لا تعدم الحكومة وسائل لافقارهم بالضرائب . ولذلك تتوقف الزراعة وتبور الأرض : وحيث إن العمل لا يؤدي بالفلاح إلا إلى ظلم أفدح ، فانه يكف عن العمل . ومن جهة أخرى ، تموت المصانع ، أو تحاول الفرار إلى خارج الحدود ، عليها تجدد الحرية التي افتقدتها في فرنسا . إن الرسوم الجمركية ، التي تفرض عند كل مخرج ، وعند كل مرور ، تجعل التجارة تبور . إن إخفاق سياسة « كولبير » الذي بدأ الناس يحسونه في أثناء حياته ، أصبح جلياً بعد مماته . مجاعة عام ١٦٩٤ الهائلة ، والافلاس : أي تعاسة !

وجمعت نخبة ممتازة هذه الشكاوى وحاولت أن تعالج هذه الشرور . إن الضائقة الفرنسية الكبرى ، ستسجل في كتب يبدو أنها قد أسلتها ضرورة

(١) تيلياك ، الكتاب العاشر

(٢) هاك هذه الفقرة : « نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف ، سوداء ، مغبرة ، قد لفتحتها الشمس ، ملحقة بالأرض التي تنبش فيها بعناد لا يغلب ، تلوح كأنها تنطق بلغة مفصلة ؛ وحينما تقف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية ؛ الواقع أنهم أناس يأوون بالليل إلى جحورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود ، بالماء وبالجزور . إنهم يكفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرق للمعيشة ، وبذا يستحقون ألا يحرموا من الحب الذي بذروه » . (كتاب الشخصيات ، الفصل ١ ، الإنسان) . La Bruyère, *Caractères*, chap. X . [المترجمان]

الحياة . كتب بواجلبرت (١) في أسلوب ثقيل خال من الفن ولكن في إصرار وصرامة لها تأثيرها ، مبيناً أن فرنسا ، التي كانت أغنى ممالك العالم فيما سبق ، قد فقدت خمسة أو ستة ملايين من دخلها السنوي ، وأن هذا العجز يزداد كل يوم . ولقد بلغ من سوء توزيع الضرائب أن تثقل على الفقير وتحمي الغنى ، وبهذه السياسة المالية أصبح الفقراء بائسين : إن الملكة بأجمعها تسير إلى حتفها . ويقول فوبان Vauban بدوره ، إن الحسالة ملحة إلى تغيير توزيع الضريبة ؛ إن ضريبة عشرية عادلة Dime تكلف أقل ، وتغل محصولاً أوفر . وإذا كان بواجلبرت وفوبان — مع بعدهما عن أن يكونا متمردين — يحاولان إصلاح مالية الدولة وإيجاد موارد يبحث الملك عنها عبثاً ، فقد كانا يبدوان دخليين مغتصبين يتعديان على ملك محفوظ من قديم (٢) : فحكم على مشروع ضريبة العشر بالحريق (٣) .

ولكن كم يبدو فنليون أكثر جسارة ! فالأسئلة التي يوجهها تليماك إلى إيدومنيه (ملك كريت) ، يوجهها فنليون ، بنفس النغمة الأليمة ، إلى تلميذه الدوق بورجونى ، إذا قدر له أن يتولى الحكم يوماً : أتعرف كيف تتأسس الدولة ؟ هل درست الواجبات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الملوك ؟ هل بحثت عن الوسائل التي تروح عن الشعوب ؟ كيف تجنب رعاياك الشرور التي تنجم عن الحكم المطلق ، وسوء الإدارة ، والحروب ؟ وحينما يصبح الدوق بورجونى فى عام ١٧١١ ولى عهد فرنسا ، يقدم له فنليون قائمة إصلاحات ، تهيئة لتنصيبه على العرش .

فلنسجيل فى قائمة فنليون ما قاله ، دفاعاً عن حقوق الانسانية ، بهذه الألفاظ : « كما أن كل أسرة عضو فى شعب معين ، كذلك كل شعب عضو فى الجنس البشرى ، الذى هو المجتمع الشامل . وكل فرد مدين للجنس البشرى ، الذى هو الوطن الأعظم ، أكثر مما هو مدين لوطنه الخاص ، الذى ولد فيه ؛ لذلك فإن المساس بالعدالة بين شعب وشعب آخر لأشد وياًلاً على الجنس البشرى ،

(١) دى بواجلبرت : تقرير عن مالية فرنسا ، ١٦٩٥ . Pierre Le Pesant De .

Boisguilbert, *Le détail de la France*, 1695.

(٢) لأن الضريبة العشرية كانت مخصصة للكنيسة . [المترجمان]

(٣) مشروع قانون عن ضريبة العشر الملكية ... (١٧٠٧) .

من المساس بالعدالة بين أسرة وأسرة . إن إنكار المشاعر الانسانية ليس إغوازاً للتربية ووقوعاً في البربرية فحسب ، بل هو أيضاً أشد صور عمى الأشقياء والمتوحشين : إنه خروج على الآدمية ، لا يليق إلا بأكلة لحوم البشر (١) . »

١٧٠٥ — توماسيوس :

أساس القانون الطبيعي وقانون الشعوب على ضوء الادراك السليم

Fundamenta juris naturae et gentium ex sensu communi deducta

١٧٠٨ — جرافينا : مصادر القانون المدني ونشأته وتقدمه ،

وقانون الشعوب واثنا عشر جدولاً مفسراً .

Origines juris civilis, quibus ortus et progressus juris civilis, jus naturale gentium et XII Tabulae explicantur.

يدخل جان فلسانزو جرافينا Gravina فكرة القانون الطبيعي في التاريخ . ويحاول ، من جهة أخرى ، أن يفسر تناقضاً يتولد دائماً من فكرة الطبيعة ، التي لا يمكن إدراكها . فالقانون الطبيعي هو العقل ، الذي يوجب الفضيلة . والفضيلة تطرد الرذيلة : ومع ذلك ترى الرذيلة أيضاً في الطبيعة ... هالك الجواب : « علاوة على القانون الشامل الذي يشترك فيه الروح والجسد معاً ، بتقديرهما مرتبطين ، فإن للانسان قانوناً يخصه ، وهو كثيراً ما يخالف القانون الآخر . أسمى الأول : القانون الجماعي ، والثاني ، قانون الروح فقط . فالقانون الجماعي يشمل عموم الكائنات ، فهو إذن يشمل الانسان أيضاً . أما قانون الروح ، القانون المنطقي ، الذي يقوم على التفكير ، فيخص الانسان فقط . » وبموجب هذا القانون الأخير ، يخضع الرجل لعقله الذاتي ، وبالتالي يخضع للفضائل ، كما لو كانت قضاة عينهم ذلك القانون لكي يحكموا على أفعالنا ويسمروا على حواصنا ...

سيطرد مجهود العقول وانتشار هذه الأفكار إلى أيامنا . ولكن نهاية القرن

(١) حديث الأموات ، سقراط والسيبياد (١٧١٨) *Dialogue des Morts, Socrate et*

Alcibiade, 1718.

السابع عشر تسجل مرحلة حاسمة ، إذ تلاقت فيها نظرية القانون الطبيعي ، ونظرية قانون الشعوب ، والوقائع . لقد أتم لوك — وإن كان أقل قوة وتعمقاً بكثير من جروسيوس وبوفندورف ، ومع أنه كان يعوزه المنطق أحياناً — تحويل « القانون » من ديني إلى مدني . الحرية ، والمساواة : كان يمكن أن يتخذ كتابه هاتين الكلمتين شعاراً . « لحالة الطبيعة قانون طبيعي ينظمها ، وعلى كل فرد أن يخضع له وأن يطيعه . فالعقل ، الذي هو هذا القانون ، يعلم كل الناس — إن تفضلوا باستشارته — أنهم ماداموا جميعاً سواسية ومستقلين ، فلا يحق لأحد أن يؤذي الآخر ، في حياته ، أو صحته ، أو حريته أو سالة ... (١) »

(١) عن الحكومة المدنية ... ترجمة دافيد مازيل ، أمستردام ١٦٩١ ، الفصل الأول ،
Du Gouvernement civil... traduit par David Mazel, Amsterdam



تيلياك في رحلته إلى الجحيم يشاهد مصير الملوك السيئين
(من كتاب مغامرات تيلياك . باريس ١٧٨٣) .

الفصل الرابع

الأخلاق الاجتماعية

إذا كان هناك رجل ، قد أكد بصورة أوضح وأقوى من كل أسلافه ، استقلال الأخلاق عن الدين ، فهو بلا شك يبير بايل . لقد رجع إلى هذا الموضوع مرات ومرات ، في أبواب قاموسه ، وفي إجاباته على أسئلة قروى . ولكنه كتب في أفكاره عن المذنب ، مستثداً ، مهدياً كل قواته ، وواضحاً متحمساً ، دستور الانفصال .

لقد بدأ في هواده ؛ ليس الكفار أسوأ من الوثنيين ، سواء من حيث العقل أو من حيث القلب . ثم تطرق ، بعد أن مهد الطريق ، موعزاً بأن الكفار ليسوا أسوأ من المسيحيين . إذا قلنا لرجل يأتي من عالم آخر إن هناك أناساً ذوي حكمة وعقل سليم ، يخافون الله ، ويعتقدون أن السماء ستثيبهم على حسناتهم وأن الجحيم ستعاقبهم على سيئاتهم : لتوقع ذلك الرجل أن يرى أولئك الناس يأتون بالحسنات ، ويحترمون الغير ، ويتسامحون حيال الإهانة والشر ، ويسعون لاكتساب سعادة أبدية . وأسفاه . . . ! فان الأمور لا تجري على هذا المنوال في الواقع . يجب أن نعترف بأمر واقع يوضحه لنا مشهد الحياة في نور ساطع وهو أن : الفرق كبير بين ما نعتقد به وما نفعله ، وأن المبادئ ليس لها تأثير على الأفعال ؛ وأنا نبدو أتقياء في كلامنا ، كفر في سيرتنا ؛ ونزعم أننا نعبد الله بينما نحن لا نطيع إلا المنفعة ولا نتبع إلا الشهوة ؛ « إني أرى الخير وأصدق به ، ولكني أرتكب الشر (١) » : هذا مثل قديم . انظر

(١) قاله الشاعر أوفيد Ovide باللاتينية على لسان الأميرة ميديه : Video meliora , proboque, deteriora sequor . وهاك تعليق بايل : « إن الشاعر الذي جعل «ميديه» تقول : « أرى الخير وأصدق به ، ولكني أفعل الشر - قد بين في وضوح ودقة الفرق بين ضوء الضمير والرأى الخاص الذي يدفعنا إلى العمل ... »
(أفكار عن المذنب ، الفصل الثاني) . [المترجمان]

كيف يعيش المسيحيون . يقرأون كتب العبادة : ولكنها تنسى فور ما تقرأ . إن جنود الجيوش الكاثوليكية جداً فاسقون ونهابون ، ينهبون البلاد بلا تمييز بين الأعداء والأصدقاء ، ويمرقون عند اللزوم — ودون تبصر — الكنائس والمعابد والأديرة . أما الحروب الصليبية ، فيها لها من مشروع يستحق الإعجاب من الوجهة النظرية ! ولكن ما أكثر ما حدث في إبانها وما تبعها من استغلال وخيانة وإجرام ! إن النساء متدينات بوجه خاص : ومع ذلك فكم نرى من يتقابلن منهن مع عشاقهن بمجرد مغادرتهن غرفة الاعتراف ! هناك عاهرات ، ولصوص ، ومجرمون يعبدون العذراء عبادة خاصة : وتسرى روايات — يزعم الناس أنها دينية — تقول إن العذراء تحمي الفتيات والأشرار ، لأنهم يحرقون شمعة أو يسجدون أمام تمثالها . إن أشياع جانسنيسوس يعارضون كثرة تناول القربان ، لأنهم يعرفون جيداً أنه يمكننا الاقتراب كل يوم من مائدة القربان المقدس ، ونبقى مع ذلك أشراراً . والخلاصة ، إن إيمان المرء لا يؤثر على سيرته وعلى أخلاقه . بل إن التدين يشجع أحياناً بعض الشهوات السيئة ، مثل الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى ، أو التمسك بالمراسم الظاهرية ، والنفاق .

حينئذ يعرض بايل للقارئ التجربة معكوسة : كما أنه لا يوجد شئ عادي أكثر من المسيحيين الأورثوذكس الذين يسلكون سلوكاً سيئاً ، كذلك نجد عدداً كبيراً من المتحررين الذين سلكوا سلوكاً صالحاً على أتم وجه . وفضلاً عن القدساء ، مثل دياجوراس ، ثيودور ، نيكانور ، أفيمير ، هيبون ، ويلين ، الذي كان دائماً جديراً بصفته كروماني عظيم ؛ وأبيقور الذي عاش حياة نموذجية ، — فلننظر إلى المحدثين : كان يشتهر في أن « دى لوبيتال » ، رئيس الديوان ، عديم الدين ، مع أنه لم يوجد أوفر من شخصيته وأنبى من حياته ؛ وأولئك الذين عاشوا سبينوزا يذكرون أنه كان أنيساً ، وحليماً ، وشريفاً ، ومستقيماً في أخلاقه ؛ ومع ذلك كان سبينوزا كافراً .

جمهورية من الكفار — لماذا لا نستطيع أن نتصورها ؟ إن مجتمعاً بلا دين يكون أشبه بمجتمع وثني ؛ ولا يفترق المسيحيون ، في حياتهم العملية ، عن الوثنيين . . . لعل الكفار يدركون الشرف والخزي ، والشواب والعقاب ، بقدر ما يدركها المسيحيون : إن فكرة فناء الروح لا تحول دون تمنى المرء أن

يكسب اسمه الخلود . وإذا كان لازماً أن يكون لمذهب شهداء ، لكي يستحق الاحترام ، فإن مذهب الكفر لا يعوزه الشهداء : « فاني » الذي مات في سبيله ؛ وأحدث من ذلك ، المدعو « مجد أفندي » الذي أعدم في « الآستانة » لأنه أنكر علناً وجود الله . « كان يستطيع أن ينقذ حياته لو اعترف بخطئه ووعد ألا يكرره في المستقبل ؛ ولكنه آثر الاصرار على تجديفه ، قائلاً إنه ، وإن كان لا ينتظر أى جزاء ، إلا أن محبته للحقيقة تجبره على أن يموت شهيداً في سبيلها ، دعماً لها . »

وبعد ما يتم بايل التجربة والتجربة العكسية على هذه الصورة ، يصل إلى نهاية إثباته : إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين ، بل مستقلين ؛ نستطيع أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين ؛ ونستطيع أن نكون أخلاقيين دون أن نكون متدينين . فالكافر الذي يعيش حياة فاضلة ليس مخلوقاً خارقاً للطبيعة : « لأن يعيش كافر حياة فاضلة ، ليس أغرب من أن يرتكب مسيحي كل أنواع الجريمة . » فالكفار الذين يعيشون في تركيا ، والكفار الذين يعيشون في الصين ، أظهر أخلاقاً من المسيحيين الذين يعيشون في روما أو في باريس . . .

ألا نستطيع أن نقول إن أخلاقاً مستقلة أفضل من أخلاق دينية ؟ مادامت الأولى لا تنتظر ثواباً أو عقاباً ولا تعتمد إلا على نفسها ؛ بينما الأخرى ، خوفاً من الجحيم وأسلها في السماء ، لابد من أن تكون متغرضة ؟ — « تولاند » ، يغالى كعادته ، قائلاً : « إن أقطع كفر لأقل شؤماً على الدولة والمجتمع البشرى من تلك الخرافة الوحشية والبربرية ، التي تملأ الدول المزدهرة بالنزاع والانقسام ، وتفسد أكبر الممالك وكثيراً ما تقلبها ؛ والتي تفصل الأولاد عن آبائهم ، والأصدقاء عن أصدقائهم ، وتحطم وحدة الأشياء التي يجب أن تكون متحدة بأقوى الصلات . . . (١) »

ولكن بعدما هدمنا أخلاق النظام الإلهي ، كيف نستطيع أن نعيد إنشاء الأخلاق في النظام البشري ؟ هنا كان يبتدىء الارتباك .

هل يجب أن نرجع إلى الوراء ، ونلتجئ إلى القداماء ، ونتخذ الوثنيين أدلاء ؟ ومن بين الوثنيين ؟ أبيقور ؟ أيبكتيتوس ؟ أولئك الفلاسفة متناقضون . هل كان يجب اختيار فيلسوف حاول أن يقدم إلى العالم أفضل ما في الأخلاق القديمة ، دون أن يؤلف مذهباً مبتكراً ؟ هل كان يجب أن نستشير الخطيب الروماني ، مؤلف كتاب « الواجبات » ، أى شيشرون ، عن قاعدة حياة مدنية لا دينية ؟ لقد كان العالم « إيرازم » Erasme معجباً بعظمة حياته وطهارة قلبه ؛ والواقع أنه « لم يخلف لنا العالم الوثني أحداً آخر يوضح تمام التوضيح هذه المبادئ الكريمة ويوصي بها بمثل تلك القوة — هذه المبادئ التى تستمد منها الطبيعة البشرية مجدها وكمالها : حب الفضيلة وحب الحرية ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشرى بأسره (١) » .

ولكن كان من السهل على علماء الأخلاق المسيحيين أن يردوا على ذلك . فقد قضت المسيحية على هذه النظريات التى يريد الناس ابتعاثها ، منذ ألف وسبعائة عام . بروتوس ، وكاتون ، وأمثالهم ، يا لهم من نماذج تعسة ! إنهم أولعوا بتلك الكلمات الضخمة ، وبذلك الحركات الكبيرة ، بتلك المواقف المسرحية ؛ فأنتهت حياتهم بالافلاس . وأنقذت الروح المسيحية الانسانية من هذا الافلاس .

حينئذ ظهرت أخلاق حديثة ، أخلاق الناس الشرفاء ؛ أخلاق سيكولوجية . لم تأنف هذه الأخلاق أن تقتبس من المصادر القديمة ، مفضلة إياها من كل الوجوه على المسيحية ؛ ولكنها كانت تستعين على الأخص بالعقل . عقل قد تمدن وتهذب ، عقل لم يعد خشناً وجامداً كما كان فيما سبق ، ولم يحتفظ بشئ من صلابته القديمة . « يجب أن ننسى وقتنا كان يكفى فيه أن يكون المرء جاداً رزيناً لى يبدو فاضلاً ، مادام الأدب ، والرقعة ، والتفنن فى الشهوات ، قد أصبحت جزءاً من الفضيلة الحالية . فمن جهة كراهية الأفعال الخبيثة ، يجب أن تبقى ما بقيت الدنيا ؛ لكن فلنتقبل أن يدعوا المترفهون « متعة » ما دعاه الغلاظ الجفافة « رذيلة » ، ولا نكسّون فضيلتنا من المشاعر القديمة التى

(١) لقد أخذنا هذه التعبيرات من كتاب « تاريخ شيشرون » بقلم ميدلتون C. Middleton لندن ١٧٤١ ترجمة أبيه بريفوفى عام ١٧٤٣ .

غرسها فطرة وحشية في الناس البدائيين (١) « لم تحرم هذه الأخلاق الملذة ، ولا الشهوة ، بشرط أن تكون معتدلة ، مسيطرا عليها . . . ما في ذلك من شك . ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تدعى أن لها قوة ملزمة ، أو قيمة شاملة . كان يجب أن يدعى المرء سانت أفريموند ، أو وليم تمبل ، أو لورد هاليفاكس ، لكي يدركها ويباشرها . أخلاق أرسطوقراطيين ، أخلاق قوم مترفين ، قوم سئموا الدنيا ؛ إنها مركب هش رقيق ، اتفاق ، ليست سيطرة ، بل تكييف .

قل من كان يستطيع أن يتقبل تلك الأخلاق الميتافيزيقية السامية الجديدة ، التي عرضها مابينوزا ، كما رأينا ، — تباين هائل ، يقابله تعارض دائم في الأخلاق البشرية ، فيا للتهوش ! ما أصعب إيجاد مبدأ مشترك ، قاعدة ينبغي أن تفرض على كل الناس ، في كل زمان وفي كل مكان ! هنا ، نرى الناس يعرضون أولادهم للوحوش ، أو يتركونهم يموتون جوعاً : كيف نتكلم بعد ذلك ، عن الصفة الشاملة للواجب الأبوي ! وهناك ، نرى الأولاد لا يترددون في قتل آبائهم عندما تدركهم الشيخوخة . « في إحدى بلاد آسيا ، لا يكاد الناس يقطعون الأمل في صحة مريض ، حتى يضعوه في حفرة تحت الأرض ، حيث يتركونه معرضاً للريح ، وأخطار الجو ، دون شفقة وبلا معونة ، حتى يموت . وإنها لعادة لدى بعض سكان « جورجيا » الذين يدينون بالمسيحية ، Mingréliens ، أن يدفنوا أبناءهم أحياء ، دون تأنيب ضمير . وفي جهات أخرى ، يأكل الآباء أبناءهم . اعتاد أهل « كاريبيا » أن يخلصوا أولادهم بقصد تسميتهم وأكلهم . يذكر « جارسيلازو دي لافيغا » أن بعض سكان « بيرو » اعتادوا أن يحتفظوا بالسبايا ، لاستخدامهن كسراري ، ويتوفرون على تغذية أولادهم منهن حتى يبلغوا الثالثة عشرة ، ثم يأكلونهم ، ويأكلون أمهاتهم بالمثل بمجرد بلوغهن سن اليأس . « إن ما نراه في الدنيا يشبه لنا ، في الواقع ، أن الأخلاق تختلف اختلافاً جوهرياً . ينبغي أن نسلم بذلك : « إن من يعنى

(١) سانت أفريموند . بقلم جوستاف لانسون ، تبدل الأفكار الأخلاقية (مجلة الشهر ،

بمطالعة تاريخ الجنس البشرى ، وفحص سيرة شعوب الأرض بغير تغرض ،
ليستطيع أن يقتنع بأنه يتعذر إيجاد أى مبدأ أخلاقى ، أو تصور أى قاعدة
للفضيلة — باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى ،
(والى كثير ما تخرقها الشعوب فى صلات بعضها ببعض) — من
غير أن تستخف بها ، وتناقضها ، تقاليد شعوب بأكملها فى بعض أرجاء
الدنيا . . . (١)»

باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى . . . هنا
ظهر احتمال أخلاق جديدة ؛ أخلاق لا شئ فطرياً فيها ، حتى ولا فكرة الخير ،
حتى ولا فكرة الشر ؛ بل أخلاق شرعية ولازمة ، مادامت مكلفة بالبقاء
على وجودنا الجماعى . حيث إننا خلقنا لحياة اجتماعية ، فمن المعقول أن نخاف
من الفوضى التى قد تهلك جنسنا ؛ ولذلك ، نتخذ الحيلة التى تنقذنا من اضطراب
مشئوم ؛ فنجمع النصائح التى توعدنا بها إلينا غريزة حفظ النوع ، فى قانون .
لأن هناك « أنانية » شرعية ، تبقى على حياة الجماعة ؛ إن الأنانية لا تصبح
مرذولة إلا إذا هددت كيان الجماعة ، وبالتالي هددت الفرد نفسه ، بحسبانه
جزءاً لا ينفصل من الكل . إن الخير الأخلاقى ليس شيئاً تقديرياً ، مثل
الشهرة ، والمال ، والمتعة ، بل إنه ضرورة حيوية ؛ إن معناه حفظ الانسانية .
يقول أشياخ ذلك المذهب إن له فضلاً يستحق الإعجاب ، فضلاً ليس
له مثيل : فإن هذه الأخلاق يمكن إثباتها . لأنها لا تستند على فرض أولى
مسلم به ، بل على حقائق واقعية يمكن تحليلها تمام التحليل . لننظر فى أنفسنا ؛
نحن نسمى « خيراً » ما يمكن أن يولد ، أو يزيد ، أو يحفظ إحساسنا المتعة ؛
وبعكس ذلك نسمى « شراً » ما يمكن أن يولد أو يزيد أو يديم إحساسنا
الألم . لذلك ، فإن منفعتنا الحقة ، أو بمعنى أصح كياننا بالذات ، يدفعنا إلى
طاعة القوانين المدنية ، مادمنا ، بمراعاتها ، نحفظ ما لنا ، وحریتنا ، وبذا نعمل
على دوام وضمان متعتنا الذاتية . أما إذا لم نراعها ، فإننا نعرض أنفسنا للعقاب ،
ثم الاضطراب ، ثم الفوضى التى لا حياة فيها بلا ألم ، أو لا حياة فيها على
الاطلاق . والأمر لا يختلف فيما يخص الأمور التقديرية : فالفضيلة تكسبنا تقدير

(١) بيان مأخوذ من « مقال عن الإدراك الانسانى » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

ومحبة الأشخاص الذين نعيش بينهم ، وبالتالي تزيد من متعتنا ؛ أما الرذيلة ، فتسبب التأنيب ، والنقد ، والعداء ، وبالتالي تسبب الألم (١).

ولكن ، هل الخير الاجتماعي هو الفضيلة الصرفة ؟ هل تنجح جماعة تنفذ واجبها بتمام الدقة في أن تزدهر أو حتى في أن تعيش ؟ ذلك ما لم يشك فيه لوك ؛ ولكن ذلك أيضاً هو ما شكك فيه ذهن خبيث ، متحرر ، أزعجه علماء الأخلاق الذين يزعمون أنه ليس في قلب الانسان إلا الكرم ، والعطف ، والايثار . كان هذا الرجل هولانديا متجلنزا ، ياعى « برنارد دى مانديفيل » وكان من طائفة الفلاسفة المحدثين ، بمعنى أنه كان يعلن تفكيره بكل حرية ، دون أن يحسب حساباً لقادة الفكر ، أو العادة ، أيا كانت قيمتها . تدفعه جسارته إلى حب الآراء الغريبة التي تثير ضجة . والحق أنه أثار ضجة ، لما بدأ يحكى قصته . كان قد حاول ، قبل ذلك ، أن يقلد قصص « إيزوب » و « لافونتين » ؛ ولكن قصته هذه لم توضع للأطفال .

لقد ظهر في ٣ أبريل عام ١٧٠٥ كتيب في ستة وعشرين صفحة ، دون اسم المؤلف : « الخلية الطنانة ، أو اللصوص الذين انقلبوا شرفاء . » ذات مرة ، كان هناك خلية تشبه مجتمعاً بشرياً حسن التنظيم . لا ينقصها اللصوص ، ولا المتعيشون على الاحتيال والاختلاس ، ولا الأطباء الفاسدون ، ولا القساوسة الفاسدون ولا الجنود الفاسدون ، ولا الوزراء الفاسدون ، وكان لها ملكة فاسدة . وكانت تحدث كل يوم خدع وسرقات في هذه الخلية ؛ والسلطة القضائية التي كان عليها أن توقف هذا الفساد ، كانت هي نفسها فاسدة . الخلاصة ، كانت كل وظيفة ، وكل طبقة مليئة بالرذائل ؛ ولكن ذلك لم يحل دون ازدهار الشعب وقوته . والواقع ، أن رذائل الأفراد كانت تشارك في الرفاهية العامة ؛ وفي مقابل ذلك ، كانت الرفاهية العامة تولد سعادة الأفراد . ولما أدرك كبار الأشقياء ذلك ، أخذوا يشاركون بكل جهدهم في سبيل الخير العام .

(١) لوك : «مقال عن الادراك الانساني» الكتاب الثاني ، الفصل ٣٨ .

لكن حدث تغير في عقول النحل ، إذ واثاه تفكير غريب في ألا يقبل بعد ذلك إلا الشرف والفضيلة ، فطالب باصلاح كاسل . وكان أعلاه صوتا أكثره بطالة ولصوصية . حينئذ أقسم « جوبيتر » أنه سينقذ هذه الخلية الزائطة من الرذيلة التي كانت تشكو منها ؛ قال ذلك : وفي الحال ، استولى حب الخير المحض على القلوب .

وسرعان ما سبب ذلك دمار كل الخلية . لم يعد بعد لا إفراط ، ولا أسراض ؛ وبالتالي لم تعد حاجة إلى الأطباء . لم يعد بعد نزاع ، ولا دعاوى ؛ فلم تعد حاجة إلى المحامين ولا إلى القضاة . ولما أصبح النحل مدبراً وقنوعاً لم يعد ينفق شيئاً ؛ وبالتالي لم يبق ترف ولا فن ولا تجارة . وبذا عم الحزن والخراب . وجد النحل المجاور أن الوقت مناسب للهجوم ؛ فبدأت المعركة . ودافعت الخلية عن نفسها وانتصرت على الغزاة ، ولكنها دفعت ثمناً غالياً لهذا الانتصار . لقد مات في هذه المعركة آلاف من النحل الشجاع . وطار باقي النحل — في عزة ووقار — إلى جوف شجرة ، خوفاً من أن يقع في الرذيلة سرّة أخرى . لم يبق للنحل إلا الفضيلة والبؤس .

« أبطلوا شكواكم ، أيها الحمقى ! إنكم تحاولون عبثاً أن تربطوا بين عظمة الشعب والفضيلة . لا يتوهم إلا المجانين أنهم يمكنهم أن يتمتعوا بخيرات الأرض ، وأن يكتسبوا الشهرة في القتال ، وأن يعيشوا في يسر ورخاء ، وأن يكونوا في نفس الوقت فضلاء . أتركوا هذه الأحلام الزائفة ! ينبغي أن يدوم الخداع ، والترف ، والبطلان ، إذا أردنا أن نتمتع بثمارها الشهية ... » ما أكثر المناقضات التي أعقبت هذا الكلام ! ما أكثر ما أثاره من نقاش ! كان « برنارد دي ماندفيل » أزرق الناب ، ولم يسمح بأن يفوت شيئاً أياً كان . إنه عاش طويلاً ، ولكن قصته هذه عاشت أطول مما عاش ، وما زلنا نناقشها إلى الآن .

الفصل الخامس

السعادة على الأرض

السعادة ؛ أتركها وديعة بين يدي العالم الآخر ؟ هناك ستكون الظلال خفيفة ، واهية ؛ بل لن تكون ظلال ، ولكن بعض الجواهر الأبدى ، الذى يستحيل أن نتصور صورته . لن يكون هناك إكليل غار ، ولا قيثارة ، ولا موسيقا سماوية . السعادة ؛ فلنقتنصها على الأرض . أسرعوا ، نحن فى عجلة ؛ لضمان فى الغد ، ولا عبرة إلا بالحاضر ؛ غافل من يقامر على المستقبل ؛ فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة .

هكذا فكر علماء الأخلاق المحدثون ، الذين أخذوا يبحثون عن السعادة فى الحاضر .

لكى نحقق حياة سعيدة ، يمكن أولا (كوسيلة أولى) أن نفكر فى هدوء ودعة ، كما يليق بالفطنة الخالصة ، وأن نلطف من حمة الخيال الذى يبالغ فى تصوير الشرور . لأنه إذا تعلق الأمر باختراع الشرور ، فمقدرتنا لاتحدها حدود ؛ نحن نضخمها ، ونظنها غريبة ليس لها دواء ؛ بل إننا نحس بعض الميل إلى الألم ، ونعزه . ولهذا الخيال الخادع عيب آخر : فانه يهدف إلى متع مستحيلة ؛ إنه يغرر بنا باكتثاره من السراب : فندسرع للحاق به ؛ ولما كنا نتخذع فى كل مرة ، فأننا لم نعد نقدر سأمنا . فلنتعلم كيف ننظر إلى الحياة على ضوء الواقع ، ولا نطلب منها أكثر من طاقتها . إننا نشكو دائما من حالة لا ترضى : ولكن ، لو فرضنا أننا اطلعنا ، قبل ولادتنا ، على كل الحوادث ، وكل المصائب التى يمكن أن تكون من نصيبنا : أفلا تتملكنا الدهشة ؟ وإذا قدرنا الأخطار التى نجونا منها أفلا نكون فى أوج السعادة بأننا ضمننا سلامتنا بهذا الثمن الزهيد؟

« العبيد ، وأولئك الذين لا يجدون الكفاف ، وأولئك الذين لا يعيشون إلا من عرق الجبين ، وأولئك الذين تنهكهم الأسراخ ، هاك قسماً كبيراً من الجنس البشرى . ما كان أقربنا من أن نكون من هؤلاء ! فلنعترف إذن بمدى الخطر فى كوننا بشراً ، ولنحتسب ما لم يصبنا من البلاء ، عدداً من الأخطار نجونا منها (١) . »

وبما وصلنا إليه من نظرة سليمة ، فلنسع إلى إدارة رزقنا إدارة حكيمة : لعله قليل ، ولكنه حقيقى . فلنعلن بتجنب الشهوات ، التى ليس وراء عنفها إلا الحزن والارتباك ؛ فلنشد الهدوء . وإذا ردد الناس أنه لا طعم له ولا لذة ، فلنهر أكتافنا : « أى فكرة لدينا عن حالة البشرية ، لو شكرونا من الهدوء ؟ » فلنعرف كيف نبتعد عن المراكز التى تضح إليها الأنظار ، الشهرة ، والطمع ، وكل الأخطار التى تهدد الرحلة الهادئة لزورقنا المسكين ، الذى يجب أن نقوده برفق نحو هدوء الميناء . فلنكن متنفقين مع أنفسنا : إن ضميراً واثقاً بنفسه لنعم الملجأ لنا . ولنحرص على رزقنا القليل ، حرص البخيل ، مخافة أن نضيع منه أى نزر يسير . إن ضربة من ضربات الحظ يمكن دائماً أن تخرسنا منه ، بالرغم من تحوطنا الدقيق . أما إذا احتطنا وسهرنا عليه ، فإن حفظنا فى الاحتفاظ به ليزيد : لأننا ، بقدر ما نكون عقلاء ، نكون بناءً لحياتنا .

متع بسيطة ، نصيب متواضع من سعادة لا نستطيع الوصول إليها ؛ حديث ممتع ، أو رحلة صيد ، أو مطالعة كتاب : فى ذلك ما يكفى لشغل أيامنا . فلنتذوق هذه المتع المضمونة بدلاً من الاعتماد على غير المضمون . « إننا نملك الحاضر بين يدينا ، ولكن المستقبل دجال مشعوذ يخطف الحاضر منا ، — ساحراً عيونا . » فلنتمتع بالخيرات البسيطة ، كأنها وهبت لنا من قوة تستطيع أن تخرسنا غداً من هباتها بنزوة من نزواتها . فلنحذر تفويت سوانح القرص ، ولنحذر الخطأ فى خصائص المتع . « المسألة مسألة حساب ، والحكمة تقتضى أن نوفر دائماً فى حجارة اللعب . . . »

إن ذلك الموقف للمقاسر الماهر ، الذى لا يكف عن الاهتمام باللعب ، والذى يضارب أو يتخلى عن المضاربة بدراية ، لا يخلو من بعض الجمال . لنعترف

(١) فونتنل ، عن السعادة . ولقد تبعنا أفكار فونتنل من قريب ، فى كل هذه الفقرة .

مع ذلك أنه ليس في طوق الجميع ، بل يقتضى ذكاء بصيراً وثبات جأش خارقاً للعادة ؛ وينظر إلى الشهوات كأنما يكفى أن نستعمل عقلنا للتغلب عليها ، وإلى الخيال كأنه عيب ذليل ؛ ويفترض يسر الحال ، واستقلالاً ، ووقت فراغ : سعادة أنانية . . .

يعرض البعض لنا ضرباً آخر . الشئ الذى يجب أن نستأصله من روحنا ، لى نحس تمام الراحة ، هو الشعور بمأساة الحياة . إن هذا الشعور يبعث في نفوسنا الألم طوال حياتنا ، وحينما يحين حيننا ، يثور ويحتاج : حينئذ تلوح مأساة أخرى ، مأساة الآخرة . ما أسعدهم ، أولئك الذين رحلوا إلى الشاطئ الآخر بشعر باسم (١) . لم يعرفوا ذلك الاضطراب الحالك عدو طمأنينة النفس ، الذى لا يكفيه إزعاج من يتملكهم ، بل يخلق فيهم حمية متعصبة لاذقة غيرهم العذاب . حماسة ، تجل ، خوف معذب على الدوام ، تخیلات مرعبة عن الجحيم والعذاب ، كيف نستبعد كل ذلك ؟

بطريقة بسيطة ؛ بفضل استعداد فكرى يسمى الخلق المرح : good humour, good nature . يكفى أن نجده . ضع على أنفك منظاراً ناجعاً ، ذا لون وردى جميل : يضحك لك كل شئ . يوم تصبح الانسانية مستعدة للابتسام ، يوم تزول تلك الجفوة الفكرية التى تزيد حدة الشرور . لاتستخفوا بفضل « الخلق المرح » ، فانه فضيلة فعالة تؤثر كعلاج دائم . يقول سبكتاتور — الذى شرع ، كما هو معلوم ، في إصلاح معاصريه رويداً رويداً ، موزعاً عليهم قليلاً من الأخلاق في كل صفحة من صحيفته — إن الخلق المرح ثوب يجب أن ترتديه كل يوم : كم يكون العالم أفضل !

لقد وجد هذا الشعور المتفشى ، الذى لم يكن مجهولاً في فرنسا ، ولكنه كان أقوى في إنجلترا ، بماله من تأثير ناجع ضد الميل العام إلى السوداء Spleen — الذى لاحظته المراقبون — وضد التعصب البوريتانى — وجد مفسراً مهذباً في شخص أنطونى أشلى كوبر ، كونت دى شفتسبرى Shaftesbury .

نحب أن نتملى بضع لحظات في هذا الوجه الرقيق . كان لدى شفتسبرى ، على ما يظهر ، أسباب كثيرة تدعوه إلى التناؤل : فهو عريق الأصل ، ابن لرجل الدولة ، حامى لوك ؛ وكان لوك نفسه يشرف على تنشئته ؛ ولما كان غير معد للحياة السياسية ، فقد استمرأ رويداً رويداً متع الفكر والفن ؛ ولما كان غنيا فقد استطاع السفر ، واقتناء الجميل من اللوحات والنادر من الكتب ، ومساعدة المحتاجين من رجال الأدب ، من أمثال دى ميزو وبایل ، ولى لكبير : كان الحظ قد حباه بكل هباته . لم يغفل منها إلا واحدة : الصحة . ذلك أنه كان مصدوراً ؛ فترك قصره ، وأراضيه ، وأصدقائه ، ووطنه ، باحثاً بلا جدوى في جو مونبلييه ، ثم في نابولى ، عن علاج للمرض الذى قضى به نخبه ، في الثانية والأربعين . بحيث إنه كان لديه أسباب كثيرة للتناؤل ، وسبب واحد ، فاصل ، لكى يلعن الحياة .

إنه يجدها جميلة ، ويجدها سعيدة : وبذا تأخذ تأكيدات ، الوادعة ، والباسمة بالرغم من ألمه ، لهجة مؤثرة . سواء في بستان انجليزى عريق الشجر ، أو في ضوء البحر المتوسط الشفاف ، يتكلم شفتسبرى مع أقرانه ؛ لا يبدو حديثه أبداً ثقيلاً متكلفاً ، بل لطيفاً بسيطاً ؛ وإذا كان فيه عيب ، فهو تشعبه وأناته . حيناً يذكرنا بأجمل أفكار فلاسفة اليونان ، أو شعراء اللاتين ، فتزينه دون جهد ؛ وحيناً يستعين بالحاضر ، فيوقظ واقعة محاصرة ، أو شخصية حية : وهكذا ينوع مفاتنه . لا يستخف بالسخرية ، أو بمنى أصح بالدعابة : فالمعنى ليس واحداً ؛ إذ السخرية للفرنسيين ، والدعابة للانجليز . إن لهجته الملتوية تتسلط عليها فكرة ثابتة ، اعتقاد يرمى إلى الاستحواذ على القلوب بافتنانها . كيف نصل إلى السعادة ؟

يجعل الناس أكثر إنسانية — إذا صح التعبير — ويتجردهم من تلك الرزانة الباطلة ، ومن نفاقهم ، ومن الحاسة التى تخدعهم في شأن مشاعرهم الحقيقية . إن العدو الذى يهاجمه شفتسبرى في « رسالة » بقيت بحق مشهورة (١) هو الحاسة : لا تلك العبقرية المبدعة التى تخلق روائع الجمال ؛ بل الحاسة الدينية ، التى تدفعنا إلى الاعتقاد بأننا نملك شرارة من الألوهية ، بينما نحن في الواقع

إنما نجذب أسوأ نقائصنا : الحزن ، الكسل في التفكير ، التعلق بالغريب ، الغرور ، الزهو الباطل ، وأكثر من ذلك فضول التطفل على حياة الغير واضطهاد الضمائر ؛ وعادة الحقد والقسوة . . . فلنستعمل ضد الحاسة سلاح العقل السليم ، وحرية الفكر ، بل حتى — وهذا أقل ما كنا نتوقعه — السخرية في الوقت المناسب .
لنتعلم الضحك : ليس هناك مبدأ أصوب منه في الطب النفساني . هل من الصواب أن نستسلم للغضب ، ونقابل حدة المحتدين بالحدة ؟ كلا ! بل الأفضل أن نضحك . فلنزل تعاضم المتعاضمين ، ولنسخر من المحزونين ؛ أما المتحمسون ، فلنهزأ بهم .

هاهم أولاء بعض المساكين من اللاجئين إلى لندن ، البروتستانت الفرنسيون القادسون من السيفين ؛ إنهم يفيضون بحاسة مقدسة ، وينتباؤون ، ويقعون في الهذيان ؛ حتى أصبحوا خطراً وقبضت عليهم السلطات . هل ينبغي أن نسجنهم ؟ أن نحكم عليهم بالاعدام ؟ أن نجعل منهم شهداء ؟ — لقد مثلهم الناس تمثيلاً تهريجياً في المساخرة ، وهذا فيه الكفاية : فانهم يفقدون ، بعد هذه السخرية ، كل أهميتهم . لنترك المرض الذي انتابهم يأخذ مجراه ، ولنضحك ، ولنبتسم : وسيفقد قوته ، وسيشفى من تلقاء نفسه . آه . . . ! لو أننا تصرفنا هذا التصرف في كل المجادلات الدينية ، منذ بداية الأزمان ، كم من أكوام من الحطب كنا أطفأنا وكم من أرواح كنا أنقذنا !

يجب أن نعامل الدين بلا تكلف : فان المرح يقود إلى الايمان الصحيح ، والسآة تقود إلى الكفر . فاذا كان الله رحيماً ، وهو لاشك رحيم ، فلنفكر في شأنه في حالة نفسانية هادئة ، بدلا من الخوف والغم . أى زيغ يجعلنا لا نبتهل إلى السماء إلا ونحن في بؤس ، أو قلق أو مرارة ؟

« الخلاصة ، يا عزيزي اللورد ، أن الطريقة السوداوية التي نباشر بها أسور الدين هي التي تجعله ، في اعتقادي ، مفعجاً إلى هذا الحد ، وتدفعه إلى خلق كل هذه المآسى المؤلمة في الدنيا . إن رأيي هو الآتي : طالما نحن نعامل الدين بالحسنى ، فلا خشية من أن نستعمل حياله مرحاً زائداً عن الحد ، ولا أن تتبادى في حرية فحسه ، أو أن نرفع الكلفة بيننا وبينه . لأنه إذا كان حقيقياً ، فلن يحتمل الفحص فحسب ، بل سيفيد منه ؛ وإذا كان مختلفاً مزيفاً ، فسينكشف ويفتضح . »

كان طبيعياً ، بل ضرورياً ، أن يجابه شنتسبرى الرجل الذى كان أكثر ما يكون إحساساً بفجاعة الحياة : باسكال . إنه يعرف نظرية الرهان (١) ، ويرفضها . يقول : إن الرهان على الدين ، بحيث إذا كان الله موجوداً نكسب كل شيء ، وإذا لم يكن موجوداً لا نخسر شيئاً ، يعنى تقليد المتسولين الماكريين الذين نقابلهم فى الطريق . إنهم يقولون لكل مار : يا مولاي . فإذا كان المار لورداً ، فسيغضب لو لم يخاطب بلقبه ، وإن لم يكن لورداً ، فسينرح لتعميده بهذا اللقب ؛ وهو فى الخالتين ، سيجود بالحسنة على هذا المتسول . . . أفليس إهانة لله أن يستند إيماننا على مثل هذا الحساب ؟

إن الله ذاته ليس مرعباً . إنه ليس جائراً ، كما يريد أشياخ « القادرية » .

(١) نظرية الرهان : ذات يوم طلب عالم رياضى من باسكال أن يقنعه بالبراهين الهندسية بوجود الله . ولما عارض باسكال بأن الله يفرج عن متناول العقل لأنه أبدي لا مبتناه ، رد العالم بأنه من المستحيل حقاً أن نعرف ماهية الله ولكن ليس من المستحيل أن نعرف وجوده . وضرب مثلاً لذلك ، العدد اللامتناهى الذى لا شك فى وجوده وإن كنا لا ندرك ماهيته . فأجاب باسكال بأن ذلك يرجع إلى أن بيننا وبين اللامتناهى صلة بالنسبة للامتداد ، وتفاوتنا بالنسبة للحدود . أما الله فليس له امتداد ولا حدود ، ولذلك لا يمكننا إدراك وجوده إلا استناداً على الإيمان والأنبياء والكتب المقدسة . ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز ، فاضطر إلى أن يضع نفسه فى مكان سائله وأن يقنعه باستدلال بسيط ، فضرب مثل الرهان وقال : « إن عدم المراهنة على وجود الله مراهنة على أنه غير موجود . فالى أى جانب تمحاز ؟ فلنزن المكسب والخسارة بالانحياز إلى الجانب المراهن على وجود الله : إذا كسبت تكسب الكل ، وإذا خسرت لا تخسر شيئاً . راهن إذن على أنه موجود دون تردد . . . » (أفكار باسكال ، بقلم ستروفسكى ، الفصل السادس ،

الرهان) . Les Pensées de Pascal, par Strowski, de l'Institut. [الترجمان]

وقد انتقد فولتير أفكار باسكال ومن بينها هذه فقال : « تبدو هذه الفكرة باطلة غير لائقة فان فكرة اللعب هذه ، والمكسب والخسارة ، لا تليق بجديّة الموضوع . غير أن صالحى فى الاعتقاد بشئ لا يثبت وجود هذا الشئ . تقول إنك ستعطى لى مملكة الدنيا إن كنت أصدق بأنك على صواب . أريد إذن بكل قلبى أن تكون على صواب ؛ ولكن ، إلى أن تثبت ذلك ، لا أستطيع أن أصدق كلامك . إذا كنت تريد أن تقنعنى فاستعمل طرقة أخرى ، ولا تتكلم عن اللعب ، والرهان ، والوجه والظهر . لا ترعبنى بالأشواك التى تبذرهما على الطريق الذى أريد أن أتبعه ، بل يجب أن أتبعه . إن استدلالك هذا لا يصلح إلا لدفع الناس إلى الكفر ، لولا أن الطبيعة كلها تنطق بوجود الله ، بقوة وصراحة بقدر ما يبدو فى برهانك من ضعف وإبهام . » (فولتير : رسائل فلسفية الرسالة ٢٥ ، عن أفكار باسكال) . [الترجمان]

إن الله ليس حائقاً علينا ، كما يريد أولئك الذين يخافون من العذاب الأبدي . لا يجبر الله الناس على أن يكونوا مستغرضين ومناققين ، كما يريد أولئك الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة ابتغاء أجر في الآخرة . إن الله هو الطيبة ، والاحسان ، المنتشر في العالم : فمن كان طيباً ، محسناً ، فهو به على اتصال . « إن محبة الغير ، والسعى في سبيل الخير الشامل ، والعمل لصالح الجميع ، بقدر ما في وسعنا من إمكان ، هو بلا شك الوصول إلى الطيبة المثلى ، إنه تحقيق ذلك الخلق الذي نسميه إلهياً . . . »

مجادلات ، وسنازعات ، ومناقشات ، وضوضاء ، ذلك ما شهدناه عشرين مرة ، في ذلك العصر الذي لم يكن قد اعتراه الملل ، الذي كان يكره عدم الاكتراث ، الذي كان يخاف الشك ، والذي كان يبحث . إن شفتسبري ، وإن كان مقتنعاً بذلك مثل معاصريه ، إلا أنه يسمعنا طجة أقل حدة ؛ فإن تحضره ، ووداعته ، ورقته الأرسوقراطية ، وغناه بالحبة واللفظ ، ومذهبه الذي يعتقد أنه عقلي بينما هو ليس إلا فضفضة عاطفية لقلب كريم ، تريخنا وتؤثر فينا . والأمر الذي لا يصدق ، هو أن هذا العالم الأخلاقي لا يستطيع أن يكره الناس ، ولا أن يشتد في حكمه عليهم ؛ ولا يعد الزمن الذي يعيش فيه سيئاً : حقاً ، إنه زمن زاخر بالشذوذ وبالجنون ، ولكنه شذوذ نشهر به ، وجنون نسمه بالفضيحة ؛ زمن يحبه نقد حر ، هو بداية السلام . وإذا وجدنا علاج شافتسبري بسيطاً جداً ، ووصفته عن السعادة غير كافية ، وفلسفته جد مألوفة أو بيتية ، كما يقول في رسالته : this plain homespun philosophy of looking into ourselves, this plain honest morals فان عزمه لا يشبط بتلك السهولة : بل يريد أن يجعلنا نتذوق ، دون أن نترك الأرض ، الملذات السماوية بفضل سحر الجبال .

Beauty and Good are one and the same الجبال والخير شيء واحد . مادام الكون انسجاماً ، فلا يمكن أن نتصور فيه شذوذاً ؛ ومادام وعينا الأخلاقي بالخير والشر يرمي إلى تحقيق هذا الانسجام ، فيجب أن نريد هذا الانسجام بتمامه . إن الرذيلة خطأ «أستطيق» ؛ وارتكاب هذه الخطيئة بالاختيار يعد أولاً تعدياً على المنطق ، ثم تعدياً على الاخلاق ، ثم تعدياً على الذوق السليم . فكما يمثل الفن روائع عالم المحسوسات ، — التي هي انعكاس «الفكرة»

المنظمة للأشياء — فكذلك يجب أن يحاول الانسان أن يمثل في ذاته ، الجمال الأخلاقى ، أو المثل الأعلى للجمال الأخلاقى ، الذى ليس إلا انعكاساً آخر لنفس الفكرة . إن المرء فنان ينحت تمثال نفسه ؛ يولد من نفسه أفكاراً صحيحة ، وأفعالا فاضلة ، وصوراً جميلة ؛ وهذه المجموعة ، التى تحققها إرادته المبدعة ، هى ما نسميها السعادة . إن الكافر يحرم نفسه من هذه المشاركة فى النظام ؛ إنه مخطئ ، إنه شرير ، إنه ينشر القبح فى العالم ، إنه تعس .

هكذا يفكر الرجل الذى أسميناه بحق « فنان الانسانية الموهوب » . وهو ، لى يقتنع بأن الأخلاق اجتماعية فى جوهرها ، يصغى إلى لوك ، الذى كان مريباً له . ولكى يتكلم عن السعادة ، يصغى إلى سبينوزا : الذى يرفض فكرة الخطيئة ، ثم ينصح الحكيم أن يتذوق متع الحياة ، ورقة العطور ، وجمال النبات ، والموسيقا ، واللهو ، والتمثيل ؛ فلن يستمرى دسوع الجنس البشرى إلا إله يعاديه . ليس سبينوزا مغموراً بهجة خفية عميقة فقط ؛ فان البهجة ، عنده ، هى الشعور بتحقيق صفة ساسية للكائن ؛ والحزن ، هو الشعور بالخط من شأن الكائن ؛ ولكنه فوق ذلك ، يقدر ثمناً عالياً ، أو قل قيمة فلسفية ، للمرح . وشفتسبرى يتبعه ؛ ولكنه ، يفضل الخير دائماً ، ولذا نراه يتبع أفلاطون أيضاً . فاذا كان الوقت الذى يعيش فيه يذكرنا ، من كل نواحيه ، بزمان النهضة ، فكيف يمكن أن يغيب فيه ذكر أفلاطون ؟ إن أساتذة كامبردج يتبعون مذهبه بشئ من التقديس ؛ يشرح « كادورت » الدنيا بخواص « بلاستيكية » تقبل التشكيل ، وسيطة بين الأفكار والخلقة . ويجب شفتسبرى أن يتأمل الظلال الكبيرة ، فى لعبتها الالهية على جدار مغارتنا (١) . يتخيل

(١) رمز المغارة *Allégorie de la Caverne* - شرح أفلاطون نظريته عن الأفكار فى رمزيته المشهورة عن المغارة حيث يمثل الناس بقوم مكبلين بالأغلال : تحت الأرض مغارة ينيرها ضوء خاب ضعيف ينفذ من كوة فى أعلى المغارة . وفى المغارة أناس مكبلون بالأغلال من أيديهم وأقدامهم ، بحيث إنهم لا يستطيعون حراكاً ولا يرون إلا الصخرة التى أمامهم . من ورائهم يمر بعض الرجال يحملون تماثيل من الحجر . وفى جوف المغارة نار موقدة تلقى بظلال التماثيل على الجدار . من البديهي أن أولئك الناس المقسيدين بالأغلال لا يرون إلا ظلال هذه التماثيل على الجدار الذى يقع أمامهم . فيعتقدون أن الحقيقة هى هذه الظلال — يقول أفلاطون إنه ينبغي تشبيه عالمنا المرئى بالاقامنة فى السجن ، وضوء النار التى تنيره بتأثير الشمس . فالأشياء التى سرت هى الأشياء التى تخص العالم =

أنه يكفي أن نصغى إلى انسجام الأفلاك ، لكي نكف عن الشكوى والصراخ .
وفي نهاية عمله ، يبدو له أن السعادة لم تعد تظهر في المذهب الرواقى ،
الذى يحتمل بل يحتقر الشرور التى لا يستطيع أن يتفادها . لا تشتري السعادة
بالزهد ، أو بالسكبت الدائم لطبيعتنا الفاسدة . لم تعد الأرض مقراً للامتحان ،
حيث المصائب التى تثقل كاهلنا أرفع قيمة من المتع ، لأن أولئك الذين سيكون
سيجدون عزاء (١) . يريد العالم أن يحول أنظاره عن المسيح المفجع ، الذى
صلب لانقاذ البشر ؛ لم يعد يريد أن يسمع نداء ذراعيه الأبكم . إن السعادة
إبراز قوة كامنة فى أنفسنا يكفي أن نحسن توجيهها . فارتضاء العذاب ، وشهوة
التضحية ، والكفاح ضد الغريزة ، وجنون الصليب ، كل هذه ليست إلا أخطاء
فى التقدير وعادات سيئة . إن إله العقل يحرم علينا أن نتصور وجودنا الفانى
كاستعداد للخلود

شاركت فى تأسيس السعادة على الأرض فضيلة ؛ فضيلة جديدة .
لم تكن تبدو فضيلة فى ذلك الوقت ؛ بل كانت ضعفاً ، بل تكاد تكون
جبناً . التسامح حيال كل الآراء ، التسامح حيال رأى أخى ، ولو كان مخطئاً ،
ولو انتهى الأمر به إلى فقدان روحه ؛ التسامح حيال رأى أدعياء النبوة
والكاذبين — هذا يعنى أننا شركاء علنا فى الباطل والضلال . بينما الواجب
على النقيض ، هو أن نفتح عيون الذين يعمهون ، وأن نهدي الضالين إلى
الطريق المستقيم . لا ريب فى أنه لا ينبغى أن نشدد على الضمائر ؛ ولكن هل
يجوز لنا أن نتركها وشأنها ، بينما نعرف أن اليقين واحد ، وأن السلام الأبدى

== الذى لا وجود له إلا فى الفكر ، والشمس التى تنيرها هى فكرة « الخير » علة العلم
وعلة الوجود . أنظر : مجموعة مصنفات أفلاطون ، طبع جازنييه ، الجزء الرابع (جمهورية)
الكتاب السابع ، ص ٢٤٧ ، وعلى الأخص مقدمة الجزء الرابع Robert Baccou ص ٤٣ ،
ومقدمة شامبرى Chambry فى الجزء الأول . [المترجمان]

(١) بوسويه : رثاء ماري تيريز النمساوية Oraison funèbre de Marie-Thérèse d'Autriche
« المسيحي ليس حياً على الأرض أبداً ، لأنه يتعذب فيها دائماً ، والعذاب تمرين ، إمتحان ،
بداية الموت »

يتوقف على معرفة اليقين ؟ إن الواجب يمنعنا من التسامح ، وبالمثل الشفقة . إذن ، لا يمكن أن يكون المتسامحون إلا سوسنيانيين متكرين ، أناساً يحسون الصفات التي تميز الكنيسة الحقيقية ، أناساً يتقبلون كل المارقين في وحدة الايمان ، ارتيابيين ، يعلنون أن لا فرق هناك ولا مفاخلة بين الأديان ، عصاة ، عقولا قوية . كان من المستحيل أن يكون رجل مثل بوسويده متسامحاً ؛ ولا رجل مثل بيليسون ، حتى حينما كان يناوش لينتز في رجوع البروتستانت إلى الكنيسة الرومانية . لقد كتب إلى لينتز في عام ١٦٩٢ — « أعتقد أن من نسميهم سوسنيانيين ، وسعهم من نسميهم أشياع الدييزم وأتباع سبينوزا ، قد شاركوا كثيراً في انتشار ذلك المذهب ، الذي يمكن أن نعبه أكبر الأخطاء ، لأنه يتفق معها كلها . ولما كانوا يخشون ألا يهتمهم الناس ، وأن تتدخل السلطات المدنية في شؤونهم ، فقد وجدوا صالحيهم في أن يقولوا باحتمال كل شيء . من هنا تولد « مذهب التسامح » ، كما يسمونه ؛ وتولدت كلمة أخرى أحدث من الأولى ، هي عدم التسامح الذي يتهمون به الكنيسة الرومانية . . . »

ولكنه كان يتكلم بلا جدوى ؛ وكان هناك تغيير ينتاب الأمور ، وكان يستشعره جيداً ؛ وجعل التسامح — بعد عناء شديد وجهد كبير طال سنين وسنين — يتخذ لونا جديداً ، فيصبح فضيلة .

كان رهان معركتين ، إحداهما سياسية ، والأخرى دينية . نعم ، إن ملك فرنسا الحق في استعمال القوة لارغام العنيددين على الرجوع عن غيرهم ؛ ولحكام هولاندا الحق في أن يعزلوا من الوظائف وأن يزوجوا في السجن من يأبون الاعتراف بأى سلطان في موضوع التفكير ، وبذا يعكرون السلام ويهددون كيان الدولة ؛ وملك انجلترا الحق في أن يحرم من حماية القانون ، أولئك الكاثوليك البشعيين الذين يعلنون دائماً سيادة روما على السلطات المدنية . — كلا . لا يستطيع الناس ولا يجوز أن يزجوا الضمائر في نشاطها ، لأن كل هذا الموضوع من اختصاص الله وحده . إن روحاً مسيحية حققة ، لتعلم وتشعر أن الاضطهاد يخالف روح الانجيل مخالفة الظلام للنور . بحيث إن ملكاً مسيحياً يجب أن يكون متسامحاً حيال كل رعاياه ، طالما يحترمون حكمه السياسى . هكذا كان وليم أورانج ، كما قال المؤرخون البروتستانت . — « قال إنه كان

بروتستانتيا ، وبصفته هذه ، لم يستطع أن يتعهد إلا بالاحتفاظ بدين الإصلاح ، وإنه على كل حال ، لم يعرف على وجه الدقة ماذا يعنى الكفر ، ولا إلى أى حد قد يمتد معنى هذه الكلمة ؛ أما عن نفسه ، فانه لن يهتم أبداً أن يضطهد أحداً من أجل دينه ، وإنه لن يعمل على تغيير إيمان أحد أيا كان ، إلا بالاقناع ، حسب الانجيل (١) . « ولقد وضع فى عام ١٦٩٠ « عقد التسامح » مقابل « فسخ أمر نانت . »

وكانت المعركة الدينية أشد . أعطى إشارتها الأولى ، عام ١٦٧٠ ، الراعى « هويسو » ، حين عرض على المذاهب أن تلقى السلاح ، لانتخاب عقيدة من السعة بحيث تشمل العالم بأسره . الأمر الذى دفع جوريو إلى الاحتداد ؛ يقول لنا إنه ألف كتابه « فخص فى كتاب الوحدة أو بحث عن التسامح فى موضوع الدين » بقصد مناقضة هويسو : « إن كرهى لهذا التسامح المهين نحو الاتحاد هو عندى داء قديم قد اشتد على مر الزمن . » واستمر الكفاح فى أرض الملجأ ؛ وأخذ الطرفان يتقارعان بالحجج دون أن تتلاقى ؛ وتتابعت الأبحاث تلو الأبحاث . وبين أكثر رعاة البروتستانت عرفانا ، مثل « هنرى باناج دى بوفال » ، و « جيدون هويه » ، وألى سورين Elie Saurin ، أن عدم التسامح ، لا التسامح ، خطيئة ضد الفكر ؛ وإذا كانوا حقاً ، قد حرموا الكاثوليك من عطفهم ورعايتهم ، كما فعل بهم « وليم الثالث » باستبعادهم من « عقد التسامح » ، — فقد حالفوا على الأقل علماء وحكام هولنديين ، مثل « جلبرت كوبر » ، وأدريان باتس Paets ونودت Noodt ، المخلصين لتقاليد بلادهم الحرة : وكانوا جميعاً يسعون فى سبيل إقامة فضيلة من الصعب إقامتها . وكانت أحياناً تظهر عواصف تفسد كل شئ : لقد تسبب بايل فى اشتداد تلك المجادلات العنيفة ، بنشر « إعلانه للاجئين » — الذى نسب إليه بحق أو بغير حق — والذى كان يحمل على عدم التسامح البروتستانتى حملته على عدم التسامح الكاثوليكي . ولكن لم تسكد العاصفة تهدأ ، حتى تغيرت نظرة الناس نحو التسامح ، فبدأ لهم مزدانا بغصن الزيتون .

(١) دافيد دوراند David Durand : تاريخ إنجلترا منذ تأسيس الرومانيين ...، لرايين ثويراس Thoyras ١٧٢٤ - ١٧٣٦ . الجزء الحادى عشر ، ص ٤٨ : شعوره عن التسامح .

كان لوك أكثر الجميع إنسانية . ليس في تلك الكتلة من المؤلفات نداء أبليغ ولا أكرم من مؤلفه «رسالة عن التسامح» *Epistola de Tolerantia* الذى نشره في عام ١٦٨٩ والذى دافع عنه حتى مماته . كان لوك يقول بأعلى صوته : تذكروا أن التسامح هو جوهر المسيحية . لأنه إذا أعوزتنا الشفقة ، والرفق ، والعطف ، فكيف نجبرو على الزعم بأننا مسيحيون ؟ إن الإيمان يؤثر بفضل الشفقة ، لا بفضل الحديد والنار . وهل ينبغى أن يحرق الأخ أخاه ، من أجل بعض الاختلاف في الآراء ، التى لن نعرف صحتها من بطلانها قبل يوم القيامة ؟ فليحارب الثائرون الغيرون — إذا راموا أن يعملوا — الرذائل والجرائم التى يرتكبها كل يوم إخوانهم في الدين : فساد أنكد بلا شك من رفض المرء ، لعدم ارتياح ضميره ، بعض قرارات الكنيسة ! فالروحانيات شئ ، والزمنيات شئ آخر ؛ والمجتمع الدينى شئ ، والمجتمع المدنى شئ آخر : ليس للحاكم سلطان على الأرواح ، فليحذر أن يعتب أبواب المعابد . إن التسامح مطابق لانجيل المسيح ، وموافق للدراك السليم لكل الناس ، حتى إنه يمكننا أن نعد من يرفضون أن يدركوا لزومه وفائدته كوحوش . أى أهمية في استعمال اللاتينية أو عدم استعمالها في الكنائس ؟ أى أهمية في السجود أو في الوقوف ؟ في ارتداء كساء طويل أو قصير ؟ يا من تؤمنون بالمدى الكاثوليكي ، وأنتم أيضاً ، يا أهل جنيف ، وأنتم يا ناكري التعميد ، ويا أيها الأرمنيون ، والسوسنيانيون ، اعلموا أنكم لن تستحوذوا على روح بالقوة ؛ فليس لكم الحق ولا القدرة . تسامحوا فيما بينكم ، وتوادوا ، متحدين تجمعكم إرادة واحدة لفعل الخير .

الفصل السادس

العلم والتقدم

مستنزه واسع منعزل فيه شخصان : مركيزة لعوب ورجل مجتمع ، صديق لها أو لعله عشيق ، يستغرقان عند انسداد الليل في حديث . عن أى موضوع ؟ عن علم الفلك : « حدثنى عن نجومك . . . (١) » . إنهما متأنقان متكلفان مهذبان : هكذا يصورهما فونتنل ، لا لأن هذه طبيعته فحسب ، بل لأنه يريد إظهارهما محبين . يريد صراحة ألا يضير كتابه أحداً ، وأن يعجب الجميع ، وعلى الأخص أولئك الذين لا يعرفون شيئاً ، وأن يسحر — قبل كل شئ — بظرفه وخفته الفاتنة . حتى ليكاد أن يفقد كتابه صفته العظيمة . ومع ذلك تنبثق في وضوح النور ، رغم التكلف في الأسلوب ، تلك العظمة الساسية . يبدو رجل المجتمع والمركيزة ، وقد طواهما جناح الليل ، يعيدان ذكرى رعاة كلدانيا القدامى ، يستخبران الأفلاك ، ويتعجبان للنجوم بعد أن تعجبا للشمس — مثل سكان الأرض الأولين . رفيقان من أبناء الرغام ، يجترئان بعيونهما الحقيرة ، يسبران غور السماء .

إن المركيزة لا تعرف شيئاً : ولكن فونتنل يعرف ، وسيعلمها في خلال بضعة ليال ، سير الكواكب الذى يبدو فى الظاهر على هذا الغموض . كفى أخطاء ! لقد أخطأ العالم فى حركات الاجرام السماوية منذ زمن بعيد ! لقد تخيل الناس من زمن طويل أن الشمس تدور حول الأرض : إنه خطأ أولى ، جر وراءه كثيراً من الأخطاء . ولكن فى النهاية زال الضلال . « لقد أتى ألماني يدعى كوبرنيكوس ، هدم كل تلك الدوائر المختلفة ، وكل تلك السموات الصلبة ، التى تخيلتها الأزمان القديمة . لقد دمر بعضها وفتت البعض الآخر .

(١) فونتنل : فى ابتسام العقل ، Le Sourire de la Raison . [المترجمان]

تملكته حماسة عالم فلكي نبيلة ، فتناول الأرض ونجاها عن مركز العالم حيث وضعت من قبل ، وفي ذلك المركز وضع الشمس ، التي كانت أحق بهذا الشرف . . . » لقد انخدع القدماء مرة أخرى ، وأخطأ الناس لأنهم تبعوهم . ولكن بزغ عهد جديد . لقد فضح العقل والفحص هذه الأخطاء الأزلية . إن العلم يتكلم ، فيجب أن نصدق به ، لقد تغيرت الأرض والسماء .

لعل المركيزة تلتها الدهشة لهذا الاكتشاف . لقد كانت تعتقد أن هذا الكون إنما خلق لها ، مثلما كان يظن ذلك الأثيني الجبنون أنه يملك كل السفن التي تدخل ميناء بيريه ، فيا للوهم الذي تبدد ! إن الأرض بما فيها من أشغال ، وحروب ، واضطراب ، لم تعد تبدو لها إلا كيرقة من دود القز ، يرقة صغيرة ، ضعيفة ، وحقية ! ولعلها قد ترتعد فرعاً ، أمام تلك الهوة اللاستهاية التي تكشفها لها .

ولكنها على العكس ، تشعر بهجة الموقفين ، يخالجها شعور من الكبرياء : إنها تسلم بهذا العلم المجدد . وهي تدخل في زمرة المؤمنين ، لم تعد من قطيع الوثنيين الذين لم يعرفوا الحقيقة أبداً ، ولا الكفار الذين يتغذون بالضلال : وهي بذلك فخورة . فلنتخيل ، باحدى تشبيهات فونتنل المألوفة ، التي تحيل الأفكار المجردة إلى صور ظريفة — مثل (زورق ينزلق على نهر ، سفينة تنساب في المحيط ، كرة تدور على الطريق) — فلنتخيل تمثيلاً في الأوبرا : فاييتون يترك الأرض (١) ، الريح ترفعه فيحلق في السماء . لنفترض أن فيثاغورس ، وأرسطو ، وأفلاطون ، وكل أولئك الحكماء الذين يتردد ذكرهم على الأسماع ، يشهدون هذا التمثيل . سيقول أحدهم : « إن فاييتون مركب من بعض أعداد ترفعه إلى أعلى . » وسيقول الثاني : « إن فاييتون يرتفع ببعض خاصية سرية . » بينما يقول الثالث : « إن لفيتون شيئاً من الشغف بأعلى المسرح ، فهو لا يرتاح ما لم يكن هناك . » تخيل سئة حلم من هذا القبيل ، قدمتها الأزمان القديمة شرحاً لتلك الظروف : أفلم يكن هذا يستدر الرثاء ؟ من حسن الطالع أن أتى ديكرت وبعض المحدثين وقالوا : « إنما يرتفع فاييتون

(١) فاييتون : في المثلولوجيا اليونانية ابن الشمس . ولقد ألف الكاتب كينو Quinault وبرا تدور حول أسطورة المشهورة (١٦٦٣).

لأنه مشدود بالحبال ، ولأن ثقلا ، أثقل منه ، ينزل . « لم يدر بخلد أحد أن ينظر إلى ما وراء الستار : يوم اكتشفت الآلة ، ويوم بدأنا نستعمل العقل ، عرفنا السر . يا للمتعة ، متعة الاكتشاف ! ويا للبهجة ، بهجة الحقيقة !

للمعرفة العلمية جالها الخاص ، لأن تصور عالم مكتمل الترتيب ، تبدو أكثر الوقائع ارتباكا فيه نتيجة لأبسط الوسائل ، أو إن أمكن القول أقلها كلفة ، لشيء يفتن العقل . فليقل إعجاب الآخرين بهذا العالم الآلى : أما المركيزة ، فعندما تعلم أنه يشبه الساعة ، تزداد حبا له . أى شيء أحق بالاعجاب من هذا الانتظام ، هذا التوفير في انتخاب الوسائل ، هذه البساطة ؟ إن كشف قوانين الطبيعة يشعرها بلذة ذهنية ، رقيقة ، نادرة : « ليست متعة كالتى تشعر بها في إحدى كوميديات موليير ، بل متعة لست أدري في أى مكان من العقل ، لا تدغدغ إلا الذهن . »

العلم ؛ لقد رأينا العلم في كل مكان ، ونحن نقرب الآن من أولئك الذين يعدون علماء في أوج العلم ، من أولئك الذين يملئون السبورة بأرقام تدوير الرءوس ، أولئك الذين يتطلعون بالمرصدة ، أولئك الذين يشرحون أجساد الحيوان والناس ، إننا ندخل في مملكتهم الخاصة . إن فونتنل يدعونا إليها . وفونتنل في الفلسفة يصطف بين « القلقين » ، وفي العلم بين « محبي الاستطلاع » وهذا نفس الشيء . فليقترب اللادينيون دون وجل من شجرة المعرفة ! ولسوف تؤثر الحقيقة على كل العقول كالهام سماوى . إن مؤلفه « محادثات عن تعدد العوالم ، ١٦٨٦ » لمقدمة ، عميقة ، خلاصة ، لتفسير جديد للكون .

لم يصبح التفكير الهندسى فقط هو البدع ، بل الهندسة أيضاً . لقد هبطت من أعلى الذرى ، حيث رفعها العصر السابق ، إلى الجمهور المثقف . وفي باريس لقي عالم رياضى — جوزيف سوفير — شهرة عريضة بالقاء محاضرات تهافت عليها النبلاء ؛ وأصرت النساء على أن يكشف الرجال « تربيع الدائرة » قبلما يحاولون اكتساب حظوتهم . وهذا على الأقل ، ما تذكره « صحيفة العلماء » ، ساخرة من هوس ذلك الوقت : « منذ ساعرف علماء الرياضة سر الدخول إلى الأبهاء ، ناقلين إلى خدور النساء ألفاظ علم قوى جاف كالرياضيات ، عن طريق كوميدية

« ميركوري الأنيق (١) » *Mercur galant* ، يقول الناس إن مملكة الأناقة تتخلف ، وإننا لم نعد نتكلم فيها إلا عن مسائل ، ونتائج ، وقضايا هندسية ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة ، وأشكال شبيهة بالمعين ، وغير ذلك ؛ وإنه كان في باريس منذ عهد قريب غادتان ، هوشت تلك المعارف من ذهنيهما ، حتى إن إحداهما لم تشأ قبول عرض زواج ، إلا إذا تعلم طالب يدها صنع المناظير التي تردد ذكرها في الكوميديا المذكورة ، ورفضت الثانية رجلاً غاية في الكمال والشرف ، بحجة أنه حين تقدم يطلب يدها ، لم يقدم شيئاً جديداً عن تربيع الدائرة . « (٤ مارس ١٦٨٦) . سادست المادة ليست سوى الامتداد ، فليس علم الطبيعة إلا علم الرياضيات . لقد شكر الناس فضل علماء الهندسة لالتفاتهم لهم تملك زمام المادة ، ولاستعاضتهم عن السفسطة واللغو — كالقول بأن الأفيون منوم لأن فيه خواص منومة — بضمان الحساب . فبفضلهم وجدوا مفتاح مغالق الظواهر الكونية .

ولكن الحق أن هذا الشعور لم يكن وحده المتسلط على العقول : هناك ضرورة أخرى كانت تعذبها ، ضرورة تزداد إلحاحاً كل يوم . كانت الرياضيات وجهاً من أوجه المعرفة : ولكن هل كانت حقاً الوجه الوحيد ؟ هل تجريد كل شيء هو معرفة كل شيء ؟ لعل الهندسة قد تجاوزت حدودها ، في انتصارها ؛ والدليل على ذلك أن ديكارت ، العالم الهندسى الفائق ، قد تاه في علم الطبيعة . المشاهدة ، والتجربة : ذلك ما كانت تنصح به الفلسفة الجديدة ؛ فهل كان يجوز أن يستخف بها العلم ؟ كان الناس يسمعون صوت جاليليو ، وأكثر منه صوت بيكون الذى لم ينسوه أبداً . لقد قال بيكون — وكان العالم لا يزال يتذكر قوله — إنه يجب أن نبتدىءً بالمشاهدة ، وإن الذهن البشرى يدرك الأشياء عن طريق الحواس ؛ وإن صور الحواس — بنقلها إلى الذهن — تصبح موضوعاً لأحكام العقل ؛ وإن العقل بدوره ، يردها صافية مصححة ؛ ولذلك يجب أن نبتدىءً الفلسفة الصحيحة من الحواس لكي تشق للدراك طريقاً مستقيماً ، ثابتاً وأكيداً . كان علماء الهندسة قد أكدوا ، بناء على تعريفهم

(١) رواية كوميدية ألفها بورسو Boursault في عام ١٦٨٣ ، وميركوري هو إله التجارة في الميثولوجيا اليونانية . وهو الزئبق أيضاً . [الترجمان]

للإفادة ، أن الفراغ ليس له وجود ؛ وعلى إثر ذلك أثبت علماء آخر ، بناء على تجاربهم ، أن الفراغ (١) موجود ولا شك في وجوده ؛ لقد وجد أولئك الأخيرون الحقيقة الصحيحة ، بتوفرهم على دراسة الواقع الملموس . الواقع . الخضوع للواقع . كان هذا هو الواجب .

هيا بنا ، فلا زالت أمامنا مهمة للنشر فيها : مهمة شاقة . فلا بد من من تغيير اتجاه العقل البشرى من جديد ، لابد من البحث ، والعمل ، والكدر ، وعلى الأخص التوصل إلى نتائج إيجابية ؛ فلنحتفظ بعون الرياضيات التي تمثل يقينا ، لكن مع الوصول إلى نمط جديد من المعرفة ، التي لا تجرد الكائن ، بل تقبل تركيبه لكي تسيطر عليه . وكان هذا مجهوداً جماعياً من قبل أوروبا التي تسير في طريق التبدل . انظر إلى الإيطاليين المجتمعين في مجمع سيمنتو بفلورنسة . كل ظاهرة طبيعية موضوع بحث علماء ذلك المجمع : لماذا يوجد دود في الفواكه ؟ ما هذه الإفرازات التي تظهر على الغصون والأوراق ؟ لماذا تضيئ السمكة في الماء ، ولا تضيئ إذا خرجت إلى الهواء ؟ إنهم يبحثون . وليس لديهم معمل ولا عدة ، ولا يكادون يخلعون ثيابهم الرسمية وشعرهم المستعار حتى ينكبوا على العمل . إنهم يبحثون . إنهم يصنعون الأدوات ، ويكتشرون من التجارب ، ويقولون : حقا ، إن المثل الأعلى للمعرفة هو الهندسة ، ولكن هذه الهندسة تتركنا لتحلق في الفضاء اللامتناهي : حينئذ نتجه نحو

(١) الفراغ Le Vide : كان الاعتقاد السائد من قديم أن الطبيعة لا تقبل الفراغ . وكان أشهر علماء الطبيعة ينكرون أن الفضاء يمكن أن يكون فارغاً على الإطلاق أي محتوياً على عدم . وكانت هذه المسألة موضع اهتمام العلماء وعلى الأخص جاليليو وتلامذته وطورشيلي وغيرهم . وبدأ باسكال يهتم بها ويجري التجارب منذ صيف ١٦٤٦ حيث أخبره صديق أن رجلاً اسمه جان بارييه يحاول انتشال الذهب الغارق مع السفينة « سنغال » بواسطة جهاز يستعمله غواص . ونجح باسكال في تجاربه لإثبات وجود الفراغ ، إذ وجد أن أي نوع من السائل إذا وضع في أمبوبة اختبار مقلوبة ، فإنه يتوقف عند ارتفاع معين ، متناسلاً دائماً مع كثافة السائل . وبين السائل وطرف الأمبوبة مسافة فارغة في الظاهر ، أثبت باسكال أنها فارغة في الحقيقة . ويرجع سبب هذا التوقف إلى كثافة الهواء . وقام بتجربة كبيرة أمام العلماء والفلاسفة ليثبت لهم ذلك ، تفصيلها في كتاب « باسكال » بقلم ستيفان فالوت الفصل ١٢ ، وكتاب « أفكار باسكال » بقلم ستروفسكي ، الفصل الأول ص ١٤

Stephen Valot, *Blaise Pascal*, (B. Grasset), Paris 1945. — F. Strowski, *Les Pensées de Pascal*, (Mellottée) Paris. [المترجمان]

التجربة التي تقودنا إلى الحقيقة ، بفضل البراهين والبراهين المضادة . ولما انحل مجمع سيمنتو في عام ١٦٦٧ ، لم يمت التقليد الايطالي ، بل هو سيدوم طوال القرن التالي بفضل مارسيجلي ، وفالسينيري ، وجوالتييري ، وكلا ريسي ، وميشيلي ، ورامازيني ، وفورتيس ؛ ولسنا ندعى أننا ذكرناهم كلهم . نشر جيوفاني ماريا لانسيزي في عام ١٧٠٤ ، في صحيفة « جاليري دي سنيرف » مقالا عن : طريقة التفلسف في الفن الطبي ، يثبت فيه أنه من الأفضل للطلب العقلي ، أن نستعمل الفلسفة التجريبية بدلا من أية فلسفة أخرى .

ولم يبد الفريق الانجليزي ، الذي يتميز فيه بويل ، نشاطا أقل : لقد استحققت « الجمعية الملكية » إعجاب أوربا . إن أعضاءها الحكماء المهرة ، لا يهتمون باظهار ذكائهم وقوة ذاكرتهم في مقالاتهم ، اهتمامهم بتقديم العلوم والفنون بفضل الوصول إلى نتائج راسخة . يبحث إنهم يفحصون أولا حقيقة الفروض التي يمكن تحقيقها في ميدان الواقع ، ولا يضيعون وقتهم في الأمور الأخرى . . . ثم يبحثون عن العلل ، بالتفكير وباجراء التجارب الجديدة ، التي تدفع بهؤلاء العلماء الكبار إلى أقصى الأبعاد ، حتى إنهم أرسلوا علماء إلى قمة جبل تنريف (في جزر الكنار) لاجراء بعض التجارب ، بعد ما أجروا عندهم تجارب عديدة واخترعوا آلات خاصة (١) .

وأصبح علماء الطبيعة الهولنديون أساتذة في المنهج الذي بدأ يتشكل ؛ الأطباء ، وعلماء النبات ، وعلماء الطبيعيات ، يتسابقون في العمل : سوامردام ، هيجنز ، بورهاف ، جرافيساند ، وليوفانهوك . وهذا الأخير ، ذو أصابع خفيفة ، ونظرة ثاقبة ، وعقل تغريه الطرافة ؛ وهو يبدأ في استكمال طريقته الفنية أو « التكنيك » كما نقول اليوم ؛ ولا يرتاح إلا بعد أن يصنع بيده ، وبعد تجارب عديدة ، مجهراً أقوى من الذي استعمله أسلافه . ولقد نجح وتوصل إلى مجهر يكبر الأشياء مائتين وسبعين مرة . إنه يرى عالما في قطرة من الماء : ففيها مخلوقات دقيقة تتحرك ، وتتقاتل ، وتبحث عن غذاء ؛ إن هذه القطرة مأهولة بالسكان كأنها محيط ، إن الحياة تختلج فيها بكل مظاهرها . وهو

(١) سوربيير Sorbière ، ذكره ج. أسكولي ، « بريطانيا العظمى أمام الرأي الفرنسي » ،

١٩٣٠ ، الجزء الثاني ، ص ٤٢ .

يطبق التجربة على سوائل مختلفة ، من دم وسنى وغير ذلك . . . ومع ذلك فقد أنكر الناس اكتشافاته ، ولم يكن هناك بد كما يحدث دائما ، من مناقشات ومناقضات ومؤلفات ، وهمة واسعة لكي يسلم رأى العام بالحقيقة التى رآها بعينه .

ثم نجد رجال اسكندناوة ، أولوس روبر ، توماس باتولان ، نيلز ستسن ، يحددون الطب باكتشافاتهم التشريحية . والألمان ، مثل أوتوفون جوريك ، الذى واصل التجارب على الفراغ . لقد نشر الألمان — بماهم عليه من نظام وتوفر على العمل الجاعى — صحيفة خاصة ، صحيفة طبية — فيزيقية ، تعرف الناس بأعمال محبى الاستطلاع فى الطبيعة ؛ وقد أثنى عليها بايل ثناء جا ، قائلا إن أصحابها يخدمون العلوم أجل الخدمات ، بمثابةهم على العمل بلا كلال ، وفى نفس الوقت ، باختراعاتهم وعبقريتهم .

ولقد أصيب الفرنسيون أيضا بحب الاستطلاع فى الطبيعة : فأهل باريس يذهبون إلى متنزه الملك للاستماع إلى دروس التشريح التى يلقيها دفرناى ، Duverney ؛ ويفاضون بأن لديهم فى شخص نيقولا ليميرى Nicolas Lémery الذى كان صيدليا فيما سبق ، « أول عالم كيميائى معقول » كما قال عنه فولتير ؛ وواحد من أعلام الطبيعة فى هذا الوقت ، وهو ماريوت Mariotte « لقد افتتح فى باريس مكتب جديد للطبيعة ، هكذا أسمى أكاديمية العلوم . قال الأب بنيون الذى يحتفظ بمفتاح هذا المكتب ، إن الطبيعة ستبدو فيه غاية فى البساطة ، وإن هذا المكتب لم يجد من اللائق أن يستعير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، مظاهر الأبهة التى يسرفون فيها . وإنه لعل صواب (١) » إن إسبانيا نفسها تشترك فى حركة الفحص : تأسست فى أشبيلية فى عام ١٦٩٧ جمعية للطبيعة والطب التجريبي . وإنك لترى الأفكار تهاجر ، كما يحدث فى الأدب ، وكما يحدث فى الفلسفة ، بل لعلها أسرع هنا . لقد نشر طبيب توسكاني شهير — جراندشسكوريدى — بحثا عن الجراثيم ، يبين فيه أن المادة لا تفسد إذا لم تعرض للذباب ، بينما هو يضع بيضه عليها إذا عرضت

(١) روح المحاضرات فى أوروبا ، ١٦٩٩ ، ص ٢٥ ، L'esprit des cours de l'Europe,

له : وتهتم أوروبا العاملة بأسرها باكتشافه هذا . فترى بيير دوست الفولنسي يترجم هذا المؤلف الايطالى ، ثم تظهر هذه الترجمة فى هولاندا ، كأن فى ذلك علامة على تبادل الأفكار . تعرف أحد سكان البندقية ، باولو ساروتى ، بروبورت بويل فى لندن ، فتملكته حماسة العلم ، واستقام معه إلى البندقية « شابين انجليزيين خبيرين فى تكييف الآلات لاجراء التجارب . » ولما قام الأب تشارد برحلته الثانية إلى سيام ، طلب منه تبيينه أن يوضح له شيئا يؤكد الناس صحته ، مع شدة غرابته : يقال إن هناك أصداقا على جبل « المائة » المتسامق فهل هذا ممكن ؟ وسرعان ما يشرع الأب لوبلان والأب دوييز فى تسلق الجبل . ولقد خصصت كبريات الصحف الأوربية حيزاً كبيراً من صفحاتها لمسائل الرياضيات العالية ، وحيزاً أكبر منه للطبيعيات . وكثيراً ماتتنبئ رسائل القراء عن سبل متأصل للخوارق : إن دجاجة لم يسبق أن وضعت بيضا ، قد وضعت بعد ما غنت بشكل خارق للعادة ، بيضة ثمينة يزيد حجمها عن الحجم الطبيعى ، وعليها رسم لا لمذنب واحد كما اعتقد الجمهور ، بل لنجوم عديدة . عثر الناس على فراشة رأسها رأس طفل صغير . تقيأت فتاة بعض العنكبوت والديدان والحلزون ، وأنواعا أخرى من الحشرات . . . تلك بعض الحوادث الغريبة التى يطرب لها الجمهور . ولكنك تلمس أيضا ، فى نفس الصفحات ، المجهود العلمى ؛ إن علماء من كل نوع ، ينكبون على العمل ، مافوعين بحب استطلاع واحد ، وقلق واحد : كيف تعمل عصارة النماء فى الأشجار؟ ما هو تأثير الكنكينا China-China على التحقيق؟ كيف تؤثر الخائثر؟ تشريح العين ، تشريح المعنة ، مسائل جديدة فى القلب البشرى . هل وجد قط متوحش هائل؟ فليكن ، فلنتناوله بالتشريح ، بدلا من أن نصيح بأنه معجزة .

ولما تهيا الجو ، ظهر — كما يحدث فى الفلسفة وفى النقد — أحد أولئك الأبطال الذين تستدعيهم الأزمان الكبرى : نيوتون .

أليس علامة من علامات الزمن ، أن يجد الرجلان اللذان وصفهما فيكو بأنهما « العبقريتان الأوليان فى هذا العصر ، لينتز ونيوتون » ، فى آن

واحد تقريبا ، حساب النهايات الصغرى ؟ إن تطبيق هذا المنهج الجديد يسمح لنا بأن نعد الظواهر الطبيعية لا كأنها غير مستمرة — وهى ليست كذلك فى العموم — بل كأنها مستمرة — كما هى فى الواقع . ما أهم المكانة التى احتلها فى تطور الفكر البشرى ذلك العلم الذى كان الناس السذج لا يزال يراودهم الظن فى أنه يمكنهم الاستغناء عنه بسهولة ! لقد لاحظ الناس أنه ، كلما ظهر نظام من نظم الرياضيات ، يظهر مذهب يبنى على هذا النظام نظرية شاملة عن الأشياء : فعلى علم الحساب قام مذهب فيثاغورس ، وعلى الهندسة قام مذهب سبينوزا ، وكذلك على علم النهايات الصغرى قامت فلسفة ليبنتز (١) . والواقع أن هذا الأخير أعلن بنفسه أن الرياضيات تقدم للفيلسوف العون الأساسى ، وأنه ما كان ليجد أبداً نظرية الاتساق ، لو لم يضع أولاً قانون الحركة . بينما كان نيوتون يصل ، بوساطة علم النهايات الصغرى ، إلى كشف قوانين الجاذبية .

لقد ظهر منذ عام ١٦٨٧ ، فى الواقع ، المؤلف الجبار الذى يتضمن شرحاً لهذه القوانين « مبادئ رياضية لفلسفة الطبيعة . » وما كان أبعد هذه المبادئ عن أن تفهم بمجرد أن تظهر ؛ فانها لن تؤقن ثمارها إلا فى القرن التالى ؛ إن القرن الثامن عشر سيتغذى ، فى الفلسفة وفى النقد وفى كل شئ ، بما كشفته نهاية القرن السابع عشر ؛ فان الناس لا يهضمون هذه المواد الدسمة إلا ببطء . إلا أن هذه « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » لا تعد الرياضيات كل الفيزيكا — كما أراد ديكارت — بل آلة تستعملها الفيزيكا فى اكتشافاتها وتجاربها . إن هذا المؤلف الخالد يرد للبحث والتجربة مكانتهما ، وقيمتهما . الاهتمام بالواقع ؛ الازعان للواقع ؛ التواضع أمام الواقع ؛ وكراهية شبه غرزية لكل نظرية لا تحققها التجربة الواقعية : تلك كانت بعض نواحي عبقرية نيوتون ، وكان اكتشافه الكونى يبدو كأنه تمجيد عظيم لمبادئه ، أو جزاء على إصراره على رأيه . إن الخيال الشعبى ، الذى يتصور نيوتون جالسا تحت شجرة ، متأملا فى سقوط التفاحة ، مسائلنا عن السبب فى سقوطها ، لا يخطئ

(١) ليون برونشويك ، مراحل فلسفة الرياضيات ، ١٩١٢ ، Les

étapes de la philosophie mathématique, 1912.

كثيراً حين يرمز إلى فكر يبدأ خطواته من الواقع الملموس . فانه يحقق إلى مدى بعيد ، الرغبة التي كانت تحرك فرق البعث الذين رأيناهم يعملون من قريب في صبر وحمية . تقبل الواقع الملموس ، وتفسيره بالعقل ، وتحقيق نفس هذا التفسير بالواقع الملموس : ذلك هو قانون العلم الصريح الذي كانت هذه الفرق تسعى إلى وضعه .

عندما يخطب فونتنل ، السكرتير الدائم لمجمع العلوم ، شنيا على إسحق نيوتون ، وعندما يعرض اكتشافاته ، بتفكيره الواضح ، حتى يتوهم غير العارفين أنهم قد أدركوها ، وعندما يشتد أسلوبه ويحتد ، دون أن يفقد شيئاً من وضوحه وجماله ، كأنه تحت تأثير النفثة المبدعة للرجل العظيم الذي سيعمل على تمجيده : عندئذ سنرى مقارنة ، لن تكون زخرفاً من البلاغة ، بل ستجابه ديكارت بنيوتون وجها لوجه ، وهو ما كان صواباً ، وما كان مرغوباً ؛ وبالرغم من تحيز فونتنل لأستاذه ديكارت ، فسيبين تمام التبيان ، الفرق بين الحالتين الفكريتين اللتين تسجلان — كما يقول — حدود العقل البشري :

« إن الرجلين اللذين يقوم بينهما هذا التعارض البين ، كانت تجمعهما صلات كبيرة . كان الاثنان عبقرين من أعلى طراز ، ولدا لتيسلطا على العقول وليشيدا المالك . ولما كانا عالين ممتازين في الهندسة ، فقد أدركا ضرورة إدخال الهندسة في ميدان الفيزيكا . ولقد أقاما علمهما الفيزيقي على هندسة لا مصادر لها تقريباً إلا ضوء معارفهما الذاتية . ولكن أحدهما تجاسر فأراد أن يرتفع إلى غاية مصادر الأشياء ، لكي يتمكن من المبادئ الأولية ببعض أفكار واضحة أساسية ، حتى لا يكون عليه بعد ذلك إلا الهبوط إلى الظواهر الطبيعية على أنها نتائج ضرورية . أما الآخر ، فكان أقل جرأة أو أكثر تواضعاً ، فبدأ خطواته مستنداً على الظواهر لكي يرتفع منها إلى المبادئ المجهولة ، معتزماً أن يتقبل تلك المبادئ حسبما تتولد من سلسلة النتائج . لقد بدأ أحدهما بما كان يدركه تمام الإدراك ليصل إلى علة ما كان يراه . بينما بدأ الآخر بما كان يراه ، ليصل إلى علة . . . »

كذلك نرى فونتنل عندما يستطرد فيتحدث عن « علم البصرييات » أو عن « بحث عن الضوء والألوان » اللذين نشرهما نيوتون في عام ١٧٠٤ ، يجيد

تبيان دور فن التجربة ، وقيمته ، وصعوبته ، وما فيه من جمال :
 « إن فن إجراء التجارب ، إذا سمونا به ، لا يعد شيئاً عادياً أبداً ، إن
 أقل واقع يعرض لنا ، ليشتمل كثيراً من الوقائع الأخرى التى تكونه أو
 تعدله ، حتى إننا لا نستطيع أن نميز كل ما يدخل فيه دون حذق كبير ،
 ولا نستطيع أن نخمن ما يمكن أن يدخل فيه دون بصيرة ثاقبة . يجب تجزئة
 هذا الواقع إلى وقائع أخرى لكل منها تركيبها الخاص . ولو أننا لم نحسن اختيار
 طريقنا ، لدخلنا فى تيه لا مخرج لنا منه . يبدو أن الوقائع الأولية والأصلية قد
 أخفتها الطبيعة عنا ، بنفس العناية التى أخفت بها العلل ، وإذا أمكننا أن
 نراها ، يخيل إلينا أنها مشهد جديد كله ، ما كنا لنتوقعه . »

إن فى ظهور الفيزيكا التجريبية تأييداً لحالة فكرية غزيرة النتائج ؛ فنيوتون
 يسجل بساطع عبقريته ، هذا الانتقال من ميدان العقل إلى ميدان الواقع ،
 وهو ما حاول بوفندورف أن ينفذه فى القانون ، وریشار سيمون فى تفسير الكتاب
 المقدس ، ولوك فى الفلسفة ، وشفتسبرى فى الأخلاق . ولقد أبعد — وهو
 يمتلىء ثقة — كل ما كان يتصوره العالم من مخاوف من تهادى عقل ، بقى زمناً
 طويلاً يعد قوة هدامة .

لقد حقق الاتحاد بين مقتضيات النقد ووقائع التجربة — وهو ما كان يبدو
 من الصعوبة بحيث يعد مستحيلاً . لقد شرع الإنسان يغزو العالم من جديد .

ألقى الطبيب بويرهااف Boerhaave فى ٨ فبراير ١٧١٥ أمام مجمع
 ليدن ، خطاباً بعنوان De comparando certo in physicis ، يلخص فيه
 النتائج التى وصل إليها العالم فى خلال السنين السابقة : لقد فشل كل
 ما أجرى من محاولات لمعرفة كنه الأشياء ، فالعلل الأولية والجواهر ليست فى
 متناولنا ، إننا نكثر من ترديد كلمات من قبل الذرات والجواهر الفردية ، على حين
 أنه ينبغى أن نعرف الآن ، أنه ليس هناك إلا فروض ستكذبها الأيام . لقد بين
 نيوتون نفسه ، أنه فى كلامه عن قوة الجاذبية ، قد تحاشى أن يقع فى ضلال

المدرسين الذين كانوا يشرحون العلل التي تستعصى على إدراكهم ، بصفات مبهمه . إن الأمر يبدو كأن الأجسام يجاذب بعضها بعضا : ولكن لماذا تتجاذب ؟ هذا هو ما يتحاشى شرحه ، إنه يشاهد ظواهر واضحة محسوسة ، ويقارن ويحسب النتائج : ويقف عند هذا الحد . وعلى ذلك ، فلنعد تلك الميادين الميتافيزيقية التي تاه فيها عدد كبير من الفلاسفة ميادين محرمه . فلنقتصر على النتائج التي تحرزها التجربة وتؤيدها ؛ ولنعد الميتافيزيقا ، ولننتجه صوب الفيزيقا ، فهنا فقط سنبتدىء في معرفة الصفات الصحيحة للطبيعة ، التي فاتنا إدراكها حتى الآن .

كل شئ يلمس ، هاك شكا آخر تغلبنا عليه : الشك الفيزيقي Pyrrhonismus physicus كقول بويرهاف نفسه . كان من المحال أن يلقي خطابه هذا لولا التغيرات التي نحاول أن نتبع مجراها . إن الطبيب الهولندي الكبير يلخص مبادئ حكمة حديثة ، فلسفة عامة كان لوك قد عبر عن جوهرها . لقد كل الناس من البحث عن الحقائق الجوهرية ، واقتنعوا أنهم لن يستطيعوا إدراكها ، فعملوا على وضع بيان بالمجال المحدود الذي يمكنهم أن يسودوه . فليفلحوا هذا الميدان ! وليبنوا فيه مسكنا مريحا ! وليجعلوا عملهم أقل مشقة وأوفر ثمرة ! وليكونوا فيه سعداء ، سعادة تزداد كل يوم ! ومن الذي سيأخذ على عاتقه أن يرشدهم في ذلك العمل ؟ العالم ، الذي عليه أن يدير الحياة ، ولذا فله الشرف العظيم . فيعلن الناس تفوقه على الأمراء والغزاة ، ويمدحونه في المجامع ، إنه يستحق تلك الصفحات البليغة التي كانت تخصص للكتاب فقط فيما سبق . وهو جدير أيضا برؤس الشؤون العامة : لقد رأى الناس أنه إذا كانت السياسة عبارة عن « حساب » رفيع أو ترتيب دقيق ، فلا ريب في أن العالم سيمتاز فيها ؛ عندما كان نيوتون عضوا في البرلمان الانجليزي ، لم يكن مثالا سيئا لعضو البرلمان . إن المؤرخ يفتخر بالتأمل في الحركات التي تثير الشعوب ، والتي تولد الدول أو تقلبها : إنها لمتعة تافهة ، بالنسبة للمتعة التي يختص بها العالم ! — « إن أغرب صفحات التاريخ ، لا تكاد تكون أغرب من الفوسفور ، ومن السوائل الباردة التي تولد اللهب إذا خلطت ، ومن أشجار الفضة ، ومن التأثيرات السحرية للمغناطيس ، ومن عسدد لا يحصى من الأسرار التي اكتشفها الفن بالبحث في

الطبيعة ... (١) « أى عجب بعد ذلك ، فى أن يأخذ الشعر فى تمجيد المجر ، والآلات التى تدور بالهواء المضغوط ، والبارومتر ؛ وفى وصف الدورة الدموية ، أو انكسار الأشعة ؟ ليس فى عمله هذا إلا تمجيد للفكر الحديث .

سيزداد اتساع المعارف على الدوام : اليوم ، كشفت الجاذبية ، وغدا ستظهر عبقریات أخرى تكشف لنا عن أسرار جديدة ؛ بحيث إننا سنكشف رويداً رويداً ، كل أجسام « الآلة الاعجازية » التى جهلناها حتى الآن . إن المعارف ستعطينا القدرة . فالعلم مفيد حتى لو بدا فى الظاهر كأن لا غناء فيه .

ليس عبثاً أن نعلم كيفية التفكير المحكم الدقيق ، وتكوين ذهننا طبقاً لصرامة قوانينه . ولكن العلم النظرى يولد الواقع دائماً : Theoriam cum praxi (٢) « إن معرفتنا أن ما تحت الماس فى القطع المكافئ ، يساوى ضعف الاحداثى الأفقى المقابل ، لمعرفة مجدية فى ذاتها ولكنها ضرورية للوصول إلى فن رمى القنابل بالدقة التى وصلنا إليها فى الوقت الحاضر » — « لما جعل أكبر علماء الهندسة فى القرن السابع عشر يدرسون منحنياً جديداً سموه سيكلويد Cycloïde لم يكن فى ذلك إلا بحث نظرى محض . . . ، بينما تعمق بحث طبيعة هذا المنحنى جعل من نصيبه أن يهبى للساعات كل الكمال الممكن وأن يذهب بقياس الزمن إلى أقصى درجات الكمال . » ماسن شك فى أن نفوذنا على الطبيعة سيزداد بلا انقطاع ، وسنسير منتقلين من أعجوبة إلى أعجوبة : سيأتى اليوم الذى يطير فيه المرء إلى عنان الجوزاء . لقد حاول الكثيرون الطيران ، بواسطة جناح يسندهم : « إن هذا الفن سيكتمل ، وذات يوم سنرحل حتى القمر ... » والخلاصة ، « هاك ميدانا فسيحا من المعارف لاستعمال الناس ولافادتهم : اختراع آلات جديدة سريعة توفر عملنا أو تسهله ، وترتيب وسائل أو مواد عديدة تضمن لنا منتجات جديدة ومفيدة ، يمكن أن نستعملها ، وبذا نزيد

(١) هذه التعبيرات وما بعدها مأخوذة من أنشودة العلم لفوننتل فى مقدمة تاريخ تجديد الأكاديمية الملكية للعلوم ، ١٧٠٢ .

(٢) تعبير لبنتز فى خطبة بمناسبة افتتاح أكاديمية برلين : *Denkschrift über die*

Errichtung der Berliner Academie (Deutsche Schriften, B. II, p. 268)

أنظر أيضاً برنامجنا عن العلم العام : *Opusculs et fragments inédits*, éd. Couturat ,

مجموع ثروتنا ، أى الأشياء المفيدة ليسر حياتنا . . . « سوف تصبح الأرض فردوساً ، ولقد أخذ الموت يتقهقر من الآن بفضل هذه « الأخوات العالمات » ، الميكانيكا والهندسة والجبر والتشريح وعلم النبات والكيمياء ؛ اللواتى يفقن عرائس . الشعر التى عفا عليها الزمان :

*Savantes sœurs, soyez fidèles
A ce que présagent mes vers :
Par vous, de cent beautés nouvelles
Les arts vont orner l'Univers.
Par les soins que vous allez prendre
Nous allons voir bientôt s'étendre
Nos jours trop prompts à s'écouler ;
Et déjà sur la sombre rive
Atropos en est plus oisive,
Lachesis a plus à filer ... (١)*

أى شعور بالانتصار ، وأى ترقب سعيد فى هذه الكلمة وحدها : التقدم ! إنها تهىء الكبرياء التى تصعب بدونها الحياة ، وذلك الرجاء فى المستقبل الذى لا يتعارض والحاضر بل يكمله ويجمله . إن منهجنا يتقدم . إن علمنا يتقدم . إن قدرتنا على العمل تزداد . حتى مزايا ذهننا تتحسن . « كل العلوم وكل الفنون التى كان تقدمها قد توقف تماماً منذ قرنين ، قد اكتسبت فى هذا العصر قوى جديدة ، ودخلت فى دور جديد . . . (٢) » — « ها نحن أولاء

(١) هودار دى لاموت ، قصيدة إلى السيد بنيون (مجمع العلوم) :

أيها الأخوات العالمات ، لا تكذبين ما تنبئ به أشعاري — بفضلكن ستزين الفنون الكون بمئة شئ جميل جديد — وسنرى قريباً بفضل عنايتكن ، امتداد أيامنا السريعة الجريان ، وقد بدأت أترويس تتعطل من الآن ، على شاطئ النهر الظليل ، بينما نشاط لاشيسيس قد ازداد .

أترويس ولاشيسيس : فى الميثولوجيا الاغريقية أترويس إلهة تقطع حبل الحياة ، ولاشيسيس إلهة أخرى تدير المغزل وتوزع النصيب ، والأثنتان من ملكات الأجل الثلاث المشهورات باسم Parques . [المترجمان]

(٢) فونتنل ، المقدمة المذكورة سابقاً .

في عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقاً ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاماً . . . (١) » بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان الإنسان قد كل من النظر إلى الوراء متأسلاً في العصر الذهبي في ثنايا الماضي البعيد ، ولما كان يخالجه الشك في الخلود ، فقد أخذ يضع آماله في مستقبل أقرب ، لعله يستمتع به بنفسه ، وسيصل إليه أبنائه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صناماً معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادي والتقدم الأخلاقي . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلسفة والدين ، وأنه سيكفي كل مطالب الذهن البشري . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم سبله إلى تخطي الحدود التي رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلنون إفلاس العلم — فالى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذي يوشك على الظهور (٢) .

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٦٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن . ١٧٠٠ . Thomas Baker, Reflections

upon Learning, by a gentleman

الفصل السابع

نحو مثال جديد للانسانية

لما اعتزل « رجل البلاط » الايطالى الحياة العامة ، بعد أن مثل دور السيد ودور المرشد ، خلفه « الرجل الفاضل » L'Honnête homme . لقد لقن دروس الحكمة لجيل لا يزال مضطرباً سهوشاً : كيف ينبغي تقبل النظام الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ، الذى يبدو بعد طول التجربة وكثرة المشاق ، أفضل نظام ؛ كيف ينبغي على كل فرد أن يستقر فى ظله ، دون انقلاب أو عصيان ، لى يسعد جميع الناس أو على الأقل يعمهم الرضا . وإذا كان هذا الرجل مجموعة من المتناقضات ، فقد وفقت حكمته بينها حتى انتهى به الأمر إلى انسجام تام : التوفيق بين الحكمة القديمة وفضائل المسيحية ، بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الحياة ، بين الروح والجسد ، بين العادى والجليل . كان يعلم الأدب ، الفضيلة الصعبة ، التى تعنى إرضاء الغير ليرضى عن أنفسنا ؛ ويقول إنه يجب اجتناب المغالاة فى كل شئ حتى فى الخير ، وألا نفتخر بشئ ، إلا الشرف . وكان يخضع لنظام ثابت ، وإرادة قوية : وإنه لمشروع صعب أن يمنع الانسان « الانية » من تخطى حدودها ، وألا يقدرها إلا كجزء من قيمة شاملة . وإن التزاماً مثل هذا ليقضى بطولة رصينة ، فما يبدو الرجل الفاضل جذاباً إلا لأنه ينظم قوته النفسانية ويتصرف فيها باتزان ، وانسجام .

وكانت صورته لا زالت تتلاشى فى نهاية العصر ؛ وكان البعض لا يزال ينظر إليها بشئ من التقديس ، ويعرضها كمثال للشبان . وأخذ « محترفو » الأبحاث يستغلون نجاح أسلافهم ويكثرون من النصائح والعظات المألوفة . فمثلاً : إن الرجل الفاضل يجب المجتمعات ويجد متعة فى البحث عنها ؛ ويقدر مؤلفات الفكر ولا يتكلم عنها بتعرض أو نقد أو غيره . . .

نصائح متأخرة وهراء معاد . لم يكن الأمر يتعلق بتقبل هذا الارتضاء الاختياري أو الانتفاع منه بأكبر نصيب : بل باصلاح كل شئ ، وبأسرع طريق . لا توفيق ، ولا مصالحة ؛ يجب تغيير السياسة ، والمجتمع . كيف يمكن أن نخضع لدين دولة ؟ إن المحدثين من الناس ، نماذج البدع — مثل الماركيز هاليفاكس الذى يعرض على ابنته مبادئ الحياة — يوصون الجيل الجديد بأن يضع لنفسه ديناً خاصاً ، ديناً لطيفاً ، مريحاً ، ظريفاً ، ديناً خالياً من الخوف والحزن : الآن ، لم يعد الله هو الذى يتحكم فى المخلوقات ، بل المخلوقات هى التى تسعى إلى الله ؛ لقد انهارت تقريبا كل المبادئ التى كانت تقوم عليها فلسفة الشرف ؛ وتحطم التمثال الجميل .

وكانت تلك الفلسفة تبدو فيما سبق كأنها من عمل العقل : ولكن الحق أن العقل هو الذى غير اتجاهه . . . لم يعد العقل قوة وسيطة ، تفرض نظاماً كله اصطلاح ، بل أصبح قوة ناقدة ، فضيلتها الأولى روح الفحص . إن الرجل الفاضل لم يعد يلائم هذا العقل الذى لا يقنع .

لقد تنازل عن عرشه من تلقاء نفسه . ولما كان قد ساد زمناً طويلاً ، فقد دخل شئ من الآلية ، فى طريقة تقليده واتباعه . لم يعد البعض ينظرون إلى الشرف كوسيلة لحياة صالحة ، بل كهدف فى ذاته ، لم يعد يتضمن شيئاً من الأخلاق ، بل أصبح متعة : بحيث إن أولئك الناس غيروا كيانه . يقول الكونت دى جرامون لصديقه ماتا ، وهو يحكى له عما تلقى من تعليم فى أكاديمية السلاح : « تعلم أننى أسهر رجل فى فرنسا ؛ ولذا سرعان ما عرفت كل ما يدرس فيها ؛ كما عرفت ما يستكمل الشباب ويجعل المرء رجلاً فاضلاً ، لأننى تعلمت كل أنواع لعب الورق والنرد (١) . » إنه لا يميز بين القشر واللب ، ويظن أن المقامرة — وهى طريقة بسيطة لقضاء الوقت فى صحبة — هى كل الشرف . ولما كنا نعلم من سياق قصته فيما بعد ، أنه يستغل مهارته فى سرقة لاعب وثق به ، فأننا نرى أن الشرف والفضيلة فى بداية القرن الثامن عشر ، لم يعودا يتفقان : ومنذئذ هوى الرجل الفاضل من منزلته ؛ فلابد من مثال آخر لقيادة الحياة .

(١) هاملتون ، مذكرات عن حياة الكونت دى جرامون ، ١٧١٣ ، الفصل الثالث .

**

لقد عرضت إسبانيا نموذجاً آخر : وكانت مفاجأة ، ولا سيما أن « البطل » الأسباني لم يكن خلقاً حديثاً ، بل يبدو كأنه يبعث من جديد . في عام ١٦٣٧ نشر الأب بالتازار جراسيان ، من جماعة الجيزويت ، كتاباً عنوانه « البطل » *El Héroe* ؛ وفي عام ١٦٤٠ « السياسي » *El Politico* ؛ وفي عام ١٦٤٦ « الرصين » *El Discreto* ؛ وفي عام ١٦٤٧ « كتاب الهاتف الالهي » *El oraculo manual* وفي ١٦٥١ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٧ « الناقد » *El Criticon* ؛ كل هذه المؤلفات محورها دراسة الانسان ، وتكوين نموذج من صفاته المختارة ؛ وكان المتوقع أن تبطل بدعتها ، طبقاً للقانون العادي ، وعلى الأخص في زمن كانت الأفكار فيه تسرع في جريانها . فلماذا ترجمت في نهاية القرن السابع عشر مؤلفات بالتازار جراسيان بتلك الكثرة ؟ ولماذا أغدق عليه هذا الشناء ؟ إنه لم يكن رجلاً مجهولاً : لكنه بعد ضياع بسيط انتهى إلى سناء المجد الكبير . ولعل السبب في ذلك ترجمة فرنسية سلسلة لمؤلفاته ، — بقلم اسلو دي لاهوسيه ، في عام ١٦٨٤ — ، هذه الترجمة وإن كانت قد أضاعت شيئاً من نكهتها الأصلية ، إلا أنها أضفت عليها شيئاً من الروح الأوربية التي كانت تعوزها ، من قبيل التعويض . ولعل جماعة الجزويت ، وقد نسيت خلافها القديم مع المؤلف ، شاركت من جهتها في هذا النجاح المتأخر . ولعل السبب أنه كان هناك جمهور واسع لا ترضيه الميول الحديثة ، ويجد في التغذية الأرضية شيئاً من المرارة ؛ وكما يقول ستانندال إنه يكمن دائماً في القلوب شيء إسباني . ولعل مرد ذلك إلى أسباب لاندرتها : فنحن لا نستطيع أن نشرح كل شيء .

والواقع أنه ظهر من عام ١٦٨٥ إلى ١٧١٦ في فرنسا فقط ، خمس عشرة ترجمة لكتب جراسيان . وتحمست ألمانيا للعالم الأخلاقي الأسباني : قدمه توماسيوس — في خطابه الافتتاحي المشهور الذي ألقاه ضد تقليد الفرنسيين الدليل — كأحد الأساتذة الذين يجب أن يستوحىهم الألمان ، إذا كانوا يريدون تهذيب أخلاقهم ، فيشيد به في بداية خطبته وفي نهايتها . وفي إنجلترا ، وفي إيطاليا ، وفي كل مكان ، يلقي جراسيان التشريف والتمجيد .

فالرجل المثالى — إذا صدقنا قول جراسيان — ليس هو الذى يقنع بمجموعة منسجمة من المزايا المتوسطة : فالفضائل العادية ، مهما تعددت ، لا تصل بالمرء إلا إلى مستوى عادى : بل هو الذى يدفعه طموح أعلى ، لأنه يريد أن يتفوق فى كل ميدان عظيم . الرجل المثالى ذو ذكاء خارق ، ورأى سديد ، وعقل من لبيب ، وعاطفة مرهفة ، (لأنه ماذا يساوى الذكاء إذا افتقد القلب ؟) ؛ يختار مقدراته الغالبة ، ويضع ثقته — بالحدس — فى مقاصد الحظ ، الذى يجب من يقابله بالعنف ؛ يهدف إلى أجل النماذج جمالا فى كل نوع ، لا لى يصل إلى مستواها ، بل لى يتعداها : إنه من يسعى ليكون « الأول والوحيد » . لذلك يجب أن يحيط نفسه بجو من الغموض ، وأن يكون قادراً على انتظار ساعته ، بل يجب أن يخفى دوره : إلى هذا الحد يجب ألا يكشف عن نفسه إلا تدريجاً ، ليثير كل مرة تعجب العامة ، أمام قوة لا ينضب لها معين . إن « البطل » يحتمل كل ألم ، ويصبر على كل إهانة : فإلهانة الوحيدة الحقة هى التى يجب أن يفرضها على نفسه ، أمام محكمة ضميره ، إذا وجد أنه قد حط من شأنه . إن الانتصار ليس غاية ، والسيطرة على الدنيا ليست إلا وسيلة : يهب البطل « إنيته » المنتصرة المتفوقة لله ، ويرد للدين مافاز به من سيادة خلقية . إنه ماهر حتى إنه يضيف على خبثه لونا مقدساً ، ويستتر كبرياءه بقناع من السذاجة ؛ خيالى مع معرفته التامة بحقيقة القلب البشرى ، وعلى مع ولعه بالجمال المثالى ؛ متحمس ، متجبر ، متدين ، يجب المشاكل لما فيها من حدة وصعوبة ، عجيب ، عظيم ، متناقض : هكذا ترسم صورته . إن « الرجل الفاضل » ، — الذى خلق ليوائم مشاهد (جزيرة فرنسا) الوديعه الهادئة ، الغبراء — تودى به المقارنة مع البطل : فالبطل يتطلب نفس الشمس التى كانت تلفح دون كيشوت فى طريق الكاستيل والتى كانت تجعل العدل ، والطيبة ، والحب تتلاأأ أساسه .

لقد راق فى عين أوروبا ؛ ولكن للحظة . كانت تستطيع أن تتأمل جراسيان بحب استطلاع وعطف ، وأن تقرأ كتبه ، وتجد فيها دراسة وتسليية : ولكنها لم تستطع أن تتخذ منه دليلاً ومرشداً . فقد فات الوقت ، وكانت قد اتخذت قرارها ، ولم يمكنها أن تتراجع . فإذا كان الرجل الفاضل لم يعد يرضيها فكيف كانت تستطيع أن تتبع آثار « بطل » أقل منه بعداً عن الدين .

لقد كانت لحظة من تلك اللحظات النادرة العجيبة ، تختلط فيها الشاشة البيضاء ، إذ تتنازعها صورتان مختلفتان ، إحداهما تتأخر في الانصراف والثانية لا يزال ينقصها الوضوح والوثوق . فقد أخذت الظلال ، تكسو النبيل ، وبدأ « البورجوازي » يتخذ رويداً رويداً شكلاً ولونا . لم يعد الناس يقبلون المبدأ الأرستقراطي الذى ساد حتى ذلك الحين . الوداع للمحارب ؛ لقد انقضى الزمن الذى لم يكن يعجب الناس فيه إلا ببطولة القواد ، وغزو المدن ، وكسب المعارك بعد قتال عنيف ، وفرار العدو على أثر هجوم شديد ، وتوزيع هامة المنتصر بالغار . يسخر سانت أفريموند من الماريشال دى هوكنكور ، ذلك المغوار ؛ ويعلم فنيلون تيلياك ، على لسان الملك إيدومنيه ، أنه ينبغي أن نكف عن تقدير الملوك المحاربين ، وأن نحب الملوك الحكماء ؛ ويسخر فونتنييل : « أغلب رجال الحرب يظهرون فى مهنتهم شجاعة كبيرة ، ولكن قليلا منهم يفكرون فيما يعملون ؛ إن ذراعهم تتحرك كيفما تشاء ؛ ولكن رأسهم يرتاح ، وإن الشغل فى غير شئ . » ويحكم بايل ، باسم العقل السليم على « زهو أولئك المحاربين الطامحين » الذين لا يفكرون إلا فى شهرتهم ، بأنه ضعف أخلاقى وجنون ؛ ويستمتع جان باتست روسو إلى هذا الكلام فيقول : — ما الغزاة إلا قوم حاباهم الحظ ، الذى يتوج الجرائم التى ليس لها مثيل :

*Mais de quelque superbe titre
Que tes héros soient revêtus,
Prenons la Raison pour arbitre,
Et cherchons chez eux leurs vertus.
Je n'y trouve qu'extravagance,
Faiblesse, injustice, arrogance,
Trahisons, fureurs, cruautés,
Etrange vertu qui se forme
Souvent de l'assemblage énorme
Des vices les plus détestés ... (١)*

(١) مهما بلغ جمال ما يحمل أبطالك من ألقاب ،
فلنجعل العقل حكماً ولنبحث عن فضائلهم ،
إنى لا أجد فيهم إلا جنونا ، وضعفاً ، وجورا ، وعجرفة
وخيانة ، وحقنا ، وقسوة ،

بالفضيلة العجيبة ، التى تتكون من مجموع ضخم من أقبح الرذائل ...

حتى أبطال الأزمان القديمة العظماء ، ينبغي أن يجرسوا من الاعجاب
الذى لا يستحقونه ، والذى خلعه عليهم الناس من زمن طويل :

*Quoi ! Rome, l'Italie en cendre.
Me feront honorer Sylla !
J'admirerais dans Alexandre
Ce que j'abhorre en Attila !
J'appellerais vertu guerrière
Une vaillance meurtrière
Qui dans mon sang trempe ses mains ;
Et je pourrais forcer ma bouche
A louer un Héros farouche
Né pour le malheur des humains ! (١)*

إن الفاتح لرجل قد سلطته الآلهة — الحانقة على البشر — على العالم ،
لتخريب الممالك ، لنشر الذعر والفقر واليأس فى كل مكان ، وليخلق عبيداً
أرقاء بقدر ما يوجد من أحرار . — إن أولئك الغزاة الكبار الذين فخلع عليهم
صفات التمجيد ، لأشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، ولكنها تخرب
كل الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن تروىها . — من صاحب هذا
الكلام ؟ « فنيلون » أيضاً ، فى الجزء الثامن من « تيلياك » .
ومسألة الشرف ؟ لقد افتتن به الناس كل الافتنان ؛ إنه اعتقاد باطل
حان الوقت للتحدث فيه . إن خرافة مسألة الشرف هذه تقود إلى المبارزة ،
أى إلى أسوء الجنون . وقد اتفقت الصرامة الانجليزية والعقل الفرنسى ضد
الرزائل التى يتظاهر بها النبلاء عادة ، بحسبانها من الأناقة ، وضد فساد
الأخلاق ، وشهوة المغامرة ، وعادة التجديف ، حتى إن « النبيل » أوغل
فى الظلام مصحوباً باللعنة .

حينئذ ظهر « البورجوازى » ، مبتسماً ، تلوح عليه أسارات الرضا والفتخار !
وكان « ستيل » Steele و « أديسون » Addison بمثابة إشبينين له ؛ كانا

(١) ماذا ...! هل من أجل روما وإيطاليا المدمرة أمجد سيلا !

هل يعجبني فى الاسكندر ما أكرهه فى « أتيل » !

هل أعد تلك الشجاعة القاتلة — التى تخضب يديها بدمى — فضيلة حربية !
وأفسر لسانى على مدح بطل متوحش ، ولد لاتعاس البشر !

عالمين أخلاقيين ، ماهرين ، حكيمين . لا ينقصهما إلا شئ من قوة التركيز ومن الجرأة ؛ ومع ذلك فقد أجادا تصوير مثال جديد للإنسانية ، وفرضاه على القراء العديدين ، الذين وجداهم أولاً في إنجلترا ، ثم في أوروبا كلها . وإذا كان حقاً أن وراء كل نجاح أدبي باعثاً اجتماعياً ، فقد كان الباعث هنا مايلي : تطوعت مجلتا *Tatler* و *Spectator* بتقديم مثال للإنسانية ، إلى زمن كان لا يزال يبحث عن قوانينه : ذلك أنهما كانا يفحصان الإنسان ، لمجرد التسلية في تصويره لا شك ، ولكن أيضاً لأنهما كانا قد شرعا في إصلاحه . كلما كانت صحيفة تخرج من مطبعتهما ، وتنشر في مقاهي لندن ، ثم تجتاز البوغاز ، كانا يوجهان رسالة إلى مجتمع في حاجة إلى أصول للأدب واللياقة والواجب ؛ ويشاركان — كما تقول صحيفة *Tatler* في توطيد شرف الطبيعة الإنسانية . كانا ينقضان خطأ ، أو يصلحان ضرراً ، وأكثر من ذلك ، كانا يرشدان إلى ما يجب فعله ، بعد تبیان ما يجب اجتنابه ، لاجئين إلى السخرية حيناً وإلى اللوم حيناً آخر . وكانا يعرفان القدماء ويمجدانهم ؛ درسوا علماء الأخلاق الفرنسيين ، مونتاني *Montaigne* ، وسانت أفريموند ، و « لافروير » ؛ ولم يجهلا أى نوع من الأنواع الحديثة للنموذج الذى يدرسانه ، من « رجل فاضل » إلى « رجل لبق » ، إلى « رجل ظريف » ، إلى « رجل متعاقل » ، إلى « أستاذ صغير » (١) ؛ ولكنهما كانا يعرفان أيضاً أن قلب الإنسان ثابت ومتقلب في نفس الوقت ، وأنه يجب ألا نكف عن العمل على إصلاحه ؛ وتوفرا على العمل : بعد كاستجليوني ، وبنكازا ، ونيكولا فارى ، وشيفالييه دى ميرى ، بعد أولئك اللاتينيين جاء رجلا انجليزيان ، فقد حل دورهما .

فقيه في القانون ، والتاجر فريبورت ، والربان سنترى ، والدنيسوى هونيكومب ، وقسيس : تلك هى الجماعة الصغيرة التى تحيط بالسيد سبكتاتور . ومجمل القول ، أن هذه الجماعة لم تضم إلا بعض البورجوازيين ، فيما عدا البارون السير روجير دى كوفرلى ؛ ولكن سير روجير يبدو من البساطة ورجاحة العقل ، ومخالفة عادات إخوانه النبلاء ، وحب المناقضة وغرائب الآراء ، ومن الرقة والاحسان ، بحيث لا يشبه فى شئ أولئك النبلاء

(١) honnête homme — galant homme — homme du bel air — un petit maître
un bel esprit.

الفاستدين الذين شهد أدب العصر السابق ازدهارهم . إن السيد سيكتاتور نفسه يبدو كأكثر الناس بساطة وتواضعاً . كل ثروته عبارة عن عقار بسيط في الريف ، لم يتغير منذ ستائة عام ؛ يعرف الكثير ولكنه لا يجب أن يتظاهر به ؛ ولقد رحل إلى كل نواحي الدنيا ، ولكنه لم يتخذ من ذلك سبباً للزهو . إنه رزين ، صامت ، يحب العزلة ، قليل الأصدقاء ، لا يتردد على أقربائه ، ولا يقابل أحداً ، حتى صاحبة مسكنه . ولما كان الناس يرونه يتردد على المسارح ، والمقاهي ، والمحلات العامة في لندن ، بحثاً في أخلاق معاصريه ، فقد أخذ البعض يظنه يسوعياً ، والبعض جاسوساً ، والبعض متآمراً ، والبعض مجنوناً . « الشئ الذي يعزيني عن هذه المعاكسات النافهة ، هو أني أجد سروراً في مشاهدة طبائع الناس بنظرة هادئة ساكنة ، دون رأى مبتسر . ولما كنت قد تحررت من الشهوات والأغراض التي تسيطر عليهم ، فإن لي بصيرة أقوى في الكشف عن فضائلهم وذنابلهم » . وهكذا يقدم لنا السيد سيكتاتور ، ببساطة خلقه وحكمته الهادئة ، نموذجاً لحياة جميلة سعيدة .

يقول لنا إن الطبقة النبيلة توشك على الضياع ، لاصرارها على المبارزة من أجل مسألة شرف ليس لها أساس ، ولأنها تخطئ في معنى كلمة العدل ، إذ تلعب مع محترفي المقامرة ، وتبدد ثروتها بين أيديهم . إنه يسخر من أولئك الذين يضعون كل شرفهم في ألقاب باطلة ، يكتسبونها مصادفة بمولدهم ، ولا فضل لهم فيها . ويبشر بالأدب وبرقة الأخلاق ، ويؤاخذ الناس الذين يضحجون في المسرح ، والنساء اللواتي يشربن الخمر أو يدخن ؛ ولكنه ينوه في نفس الوقت بأن التهذيب الخارجي ليس كل شئ في الحياة ؛ بل يفضل تأكيد الفردية على إخماء الشخصية ؛ إن كلا من المجاملة ، والتصنع ، والتكلف تثير استمئزازه ؛ فقيمة كل امرئ في صدق طبيعته لا في تصنعه . إن الناس يخطئون في ظنهم أن أسمى فضيلة لدى الرجال الشجاعة ، ولدى النساء العفة ؛ اعتقاد باطل مرده إلى رغبة كل جنس في أن يروق في عين الجنس الآخر . فالنساء يقدرن الشجاعة عند الرجال فوق كل شئ ، والرجال يكرهون النساء الخائئات . كأنما دسائة الخلق ، وكرم الطبع ، ورقة الشمائل ، ليست في منزلة تلك المزايا التي يسمونها اجتماعية ، والتي لها مكان الشرف في العادة ! وبالمثل ينبغي أن يقدم المفيد على الظريف ؛ فالغائيات اللواتي لا يبتغين إلا اجتذاب

الأنظار ، والمتعطلين الذين لا يروسون إلا نبيل الاعجاب ، والمتكلمون ، الذين غالوا في الرقة والدقة في كل شيء ، حتى أصبحوا لا يبالون بالخير والشر ، كل أولئك جنس مشؤوم . وإن الدعابة ، والملحة ، والسخرية ، التي يستلطفها الناس ، ليست في الغالب إلا خبثا محضا . وبعد ، فإذا تساوى حياة المجتمع نفسها؟ هل يجب أن يكون دور الرجل التأنق والتظاهر في المجالس والمجتمعات؟ هل في ذلك كل سعادته؟ إن السعادة عدوة الأبهة والضمجة ، بل هي تبتغي العزلة ؛ إنها تتولد من التمتع الذاتي ، أو من صداقة عدد قليل من الأشخاص المختارين ؛ إنها تحب الهدوء والانفراد ، وتتردد على الغابات والجداول ، على الحقول والمروج : تجد في كيانها كل ما تحتاج إليه ، وإنها لفي غنى عن الشهود والمشاهدين . وبالعكس ، فإن السعادة الخيالية لا هم لها إلا اجتذاب الأنظار ، ولا سعى لها إلا وراء إثارة الاعجاب ، حياتها تترعرع في القصور ، والمسارح ، والاجتماعات ، وتموت بمجرد ما تنصرف عنها العيون . السعادة تقتضي ألا نغالى في مطالبتنا ! والبحث عنها لا يفيد الجنس البشرى بقدر ما يفيد قدرة المرء على السلوان ، وثباته وصبره أمام الأحزان . إن رضى النفس هو كل ما نستطيع أن نتوقعه في هذه الدنيا : فلا تكاد أطاعنا ترتفع حتى تصادفها العوائق والآلام . لنستغل دراستنا وجهودنا لنحصل على الراحة في الأرض ، والسعادة في السماء . — إننا نرى كيف يكرر السيد سبكتاتور بعض الصور المعروفة لموضوعات قديمة ؛ ولكننا نرى أيضا كيف يبتعد ابتعادا صريحا — ولو أنه يلتزم الكلاسيكية — عن مثال الرجل الفاضل ؛ وكيف ينتقل — محاولا أن يشيد حالة رفيعة من المدنية — من الأرستقراطية إلى البورجوازية ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن المتعة الاجتماعية إلى الفائدة الاجتماعية ، ومن الفن إلى الأخلاق .

تقول مجلة *Tatler* ، إن التاجر أحق بلقب « جنتلمان » من رجل البلاط الذي لا يشارك إلا بالكلام ، ومن العالم الذي يسخر من الجاهل . وهذا ما تراه مجلة سبكتاتور *Spectator* . إن التاجر جدير بكل الاحترام . فهو لا يعطى لانجلترا القوة ، والغنى ، والشرف فحسب ؛ ولم يرفع مصرف إنجلترا — سبيل الأيام الحديثة — إلى مجده فقط ، بل يعمل ، بفضل تجارته ، في سبيل التعاون بين الدول ، ويدفعها إلى المشاركة في سبيل الرفاهة العامة :

إنه صديق الجنس البشرى . البطل يقنع بشهرة باطلة ، بينما يحتاج التاجر إلى سمعة أدق وأرهف ، وكأثما أرق ، تسمى ثقة أو ائتمان . إن كلمة بسيطة ، أو تلميحاً أو سريان خبر غير صحيح ، يجرح هذا الائتمان ويخرب التاجر : قال نبيل ذات يوم إنه اعتاد أن يتكلم بكل حرية ، عن النبلاء الآخرين ، دون تحفظ ، بينما كان يحرص على ألا يتكلم بسوء عن التجار : لأن في ذلك قضاء عليهم وإدانة لهم بدون دفاع . هكذا ينتشر شرف من نوع جديد : شرف التاجر .

إن الشخصيات تبدو أكثر حيوية على المسرح ، كما يعلم الجميع ، فالكتاب مضطرون إلى المبالغة فيها بعض الشيء ، ليظهروها للعيون . ولا يكتفى ستيل بوصف تلك المنافسة بين النبيل والتاجر في الصحف فقط ، بل ينقلها إلى المسرح . وكان هذا في واحدة من أجمل مسرحياته : « The Conscious Lovers » . سيرجون بيفيل ، الرجل النبيل ، يوشك على تزويج ابنته من ابن السيد سيلاند ، التاجر الثرى الذى اغتنى من الاتجار مع بلاد الهند . إنهما يتجابهان : يستخر التاجر من الرجل النبيل ؛ قائلاً إن عنده — هو ، سيلاند — سلسلة نسب رائعة : جود فروا ، أبو أدوارد ، أبو بطليموس ، أبو كراسوس ، أبو الكونت ريشارد ، أبو المركيز هنرى ، أبو الدوق جان : كلهم ديكة ممتازة في القتال . . .

وإذا لم يكن لدى السير جون بيفيل المعرفة الكافية ، فإن السيد سيلاند يتكفل بأن يوضح له التطور الذى حدث في إنجلترا .

— « اسمح لى أن أقول لك إننا ، معشر التجار ، نوع من النبلاء ظهر في الدنيا في القرن الأخير . إن لنا مالكم من شرف ونفع ، يأبها الملاك الذين يعدكم الناس أفضل منا بكثير . لأن مشاغلكم لا تتعدى ، في الحق ، حمل علف أو ثور سمين . إنكم حقا قوم مضحكون ، لا تصلحون إلا لخلق الكسالى ! »
وهاك صيغة أكثر كبراً

— « إنه الحق كل الحق ، إن التاجر الكامل هو أفضل مشال للنبيل في الشعب ؛ وأنه يفوق كثيراً من النبلاء من وجهة المعرفة ، والحكمة ، وحسن السلوك . »

وخلاصة القول ، أن انقلاباً قد تم ، وأن الأدب قد سجله وعمل على ،
نشره :

— « إن مال عدد كبير من النبلاء أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى
التنازل عن إرث آبائهم لأسياد جدد ، كانوا أدق منهم في إدارة حساباتهم ،
ولا شك في أن الذي اكتسب ملكاً بفضل صناعته أحق بملكيته من الذي
أضاعه نتيجة لاهماله . . . (١) »

هذا الطراز الانجليزي الذي رأيناه يتشكل ، سيؤثر على كل أوروبا تأثيراً
عميقاً . ستشيعه الصحف ، وقصص الأسفار ، والمسرح والروايات ؛ ويسعى
أهل البدع إلى تقليده : بساطة في المظهر ، ثياب بلا زينة ؛ صوف لا حرير ؛
وعصا لا سيف . وبساطة في الروح أيضاً : خلق صريح يذهب في مقت الكذب
إلى حد الخشونة ، إدراك سليم ، اهتمام بالمسائل العملية : فكما يقول السيد
سبكتاتور ، هل ينبغي ألا نهتم إلا بالأدب والفنون الجميلة ؟ يجب أن نوجه
الاهتمام أيضاً إلى العمل ، والتجارة ، والادخار ، والفنون الميكانيكية التي
تفيد في استكمال الحياة . يقول بيير كوست — الذي ترجم في عام ١٦٩٥ كتاب
جون لوك عن « تربية الأطفال » — إن الحق أن ذلك المؤلف الانجليزي كتب
للشباب المذهب Gentlemen ، ولكن لا يجوز أن يخطئ الفرنسيون في
معنى كلمة « جنتلمان » هذه : لأنها لا تشير إلى النبلاء ، بل إلى الطبقة التي
تأتي تحت رتبة البارون مباشرة ، أي إلى الأشخاص الذين يسمون في فرنسا
« أناساً من أسرة طيبة » ، أو بورجوازيين طيبين ، « وبذلك يسهل علينا أن
نستنتج أن هذا البحث عن التربية لابد من أن يلاقي رواجاً واسعاً ، نظراً لأنه
كتب خصيصاً للنبلاء ، على أن تأخذ هذه الكلمة المعنى الذي أخذته في
انجلترا » . هكذا عرضت البورجوازية الانجليزية على لسان بيير كوست ، دعوة
إلى البورجوازية الأوروبية .

ولكن لن يملك شعب فيما بعد الاستيلاء في أن يكون « طرازا » عالمياً

وحده ، ولذلك سيكون هذا الطراز أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً في معالمة من الطراز الكلاسيكي ؛ ولن يبدو أى مثال فيما بعد ، بتلك البساطة الجميلة التي أضفها الفن الكلاسيكي على النموذج الذي قدمه للعالم . لقد أخذت فرنسا تبحث من جانبها . فلا بد لها — وبذلك يقضى طبعها وإرادتها — من دليل يقودها نحو العقل ، ونحو استقلال الفكر . فعرضت أخيراً المثل الأعلى الذي سنتخذُه بصفة قطعية ، البدعة الفكرية في القرن الثامن عشر : مولد من الانجليزى والفرنسى ، مفكر نظري وسيد للحياة : الفيلسوف .

في هذا الوقت ، وقت العمل والتوليد ، في أى صورة يظهر لنا هذا النموذج الجديد ؟ « الفيلسوف » — كما يقول لنا قاسوس الأكاديمية سنة ١٦٩٤ — : « هو الذى يتوفر على دراسة العلوم ، ويرمى إلى معرفة النتائج بمعرفة العذل والمبادئ . . . الفيلسوف هو الرجل الحكيم الذى يعيش عيشة هادئة منعزلة ، بعيداً عن صخب الأسور . . . وهذه الكلمة تنطبق أحياناً على الرجل الذى يعلو بنفسه ، بفضل تحرر فكره ، فوق الفروض والالتزامات العادية للحياة المدنية . »

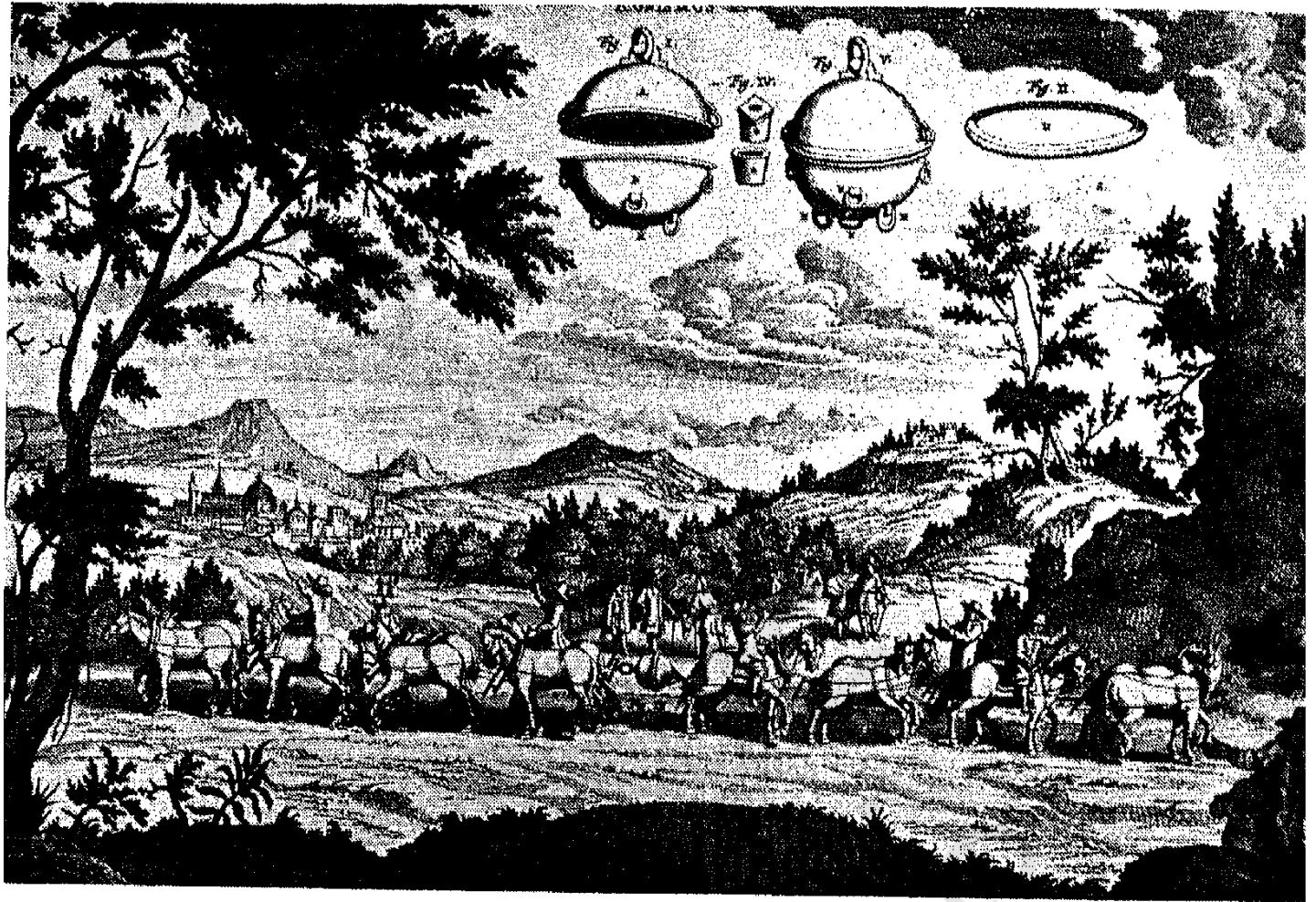
هذا زمن تتلاحق فيه هذه الملامح المختلفة متتابعة . أولاً ، لم يعد الفيلسوف ذلك الرجل ، المحترف ، المتخصص ، الأستاذ ، الدعى الذى لا يقسم إلا بأرسطو أو بأفلاطون ، بل من الجائز ألا يدرس المرء الميتافيزيقا أبداً ، ومع ذلك يكون فيلسوفاً . — ثم ، إنه عالم يستعمل عقله ، لا ذاكرته : يدرس علم الفلك ، ويتكلم عن تعدد العوالم ، ويشرح — إن لم يكن لم فعلى الأقل كيف — تدور الأرض حول الشمس . — إنه حكيم ؛ فهو يتخذ لنفسه حياة ناعمة ، يحيط به أصدقاء وصديقات ، دون أن يطمع في وظيفة أو مهنة أخرى غير وظيفة مراقب بط قصر سان جيمس ؛ وسيتضمن برنامج الشهوة ، دون أن تشغل حيزاً كبيراً : شهوة معقولة . — إنه متحرر الفكر : هذا هو المهم . إنه يقدر كل شئ في حرية تامة ؛ ويعيد إلى العقل منزلته الرفيعة ، كما ستقول مدام « دى لامبرت » فيما بعد . إن أولئك السادة أعضاء الأكاديمية يخطئون ، أو لعلهم يسيئون التنبؤ ، في قولهم إن الفيلسوف يعلو بنفسه فوق فروض والتزامات الحياة المدنية . لأن الفيلسوف ، على العكس ، يبتغى إصلاحها : فلا فلسفة إن لم يستعمل الفيلسوف أنصاراً . وأخيراً فسيكون له قلب حار ،

ولكن بعد مدة ؛ يجب أن ننتظر نصف قرن ، قبلما يضطرم قلبه ويشتعل بكل لهبه .

يبدو الفيلسوف ، من بدايته ، خصا للاديان المنزلة . فان قلت إن في الصين ، جميع مستشاري الاسباطور والمقربين إليه فلاسفة ، فانك تدرك جيداً أنهم ، مثل أستاذهم كوندوشيووس ، حكماء لا دينيون . وإن استمعت إلى فيلسوف يتكلم عن الأخلاق والعلم ، فكن متأكداً أن أخلاقه لن تكون دينية ، وأن علمه لن يكون فيه شيء من القداسة : بل العكس . وإن علمت أن رجلاً عاش فيلسوفاً ومات فيلسوفاً ، فستدرك أن ذلك الرجل مات غير مؤمن . والمدافعون عن التقاليد لا يخطئون في ذلك ؛ ألف الأب « ليجيه » في عام ١٦٩٦ مسرحية لدرسته ، بعنوان « ديموقريطس أو حكم الفيلسوف »

Damocles, sive philosophus regnans : كن أحمق وسلم زمام السلطة لفيلسوف ، وسرعان ما يقلب أمور الدنيا !

فلسفة تكف عن الميتافيزيقا وتقتصر مختارة على ما تستطيع أن تدركه مباشرة في النفس البشرية . فكرة طبيعة مازال الناس ينكرون طبيعتها التامة ، ولكنها مع ذلك عظيمة قوية ، منتظمة ، وموافقة للعقل : ومن هنا دين طبيعي وقانون طبيعي ، وحرية طبيعية ، ومساواة طبيعية . أخلاق تنقسم إلى فروع عديدة ؛ والالتجاء إلى المنفعة الاجتماعية لاختيار أفضل هذه الأخلاق . الحق في السعادة ، في السعادة على الأرض ؛ الكفاح ضد الأعداء الذين يحولون دون سعادة الناس في هذه الدنيا ، ضد السلطة المطلقة ، ضد الخرافة ، ضد الحرب . العلم الذي سيضمن تقدم الإنسان ، وبالتالي سعادته . الفلسفة ، مرشد الحياة . تلك هي التبدلات التي حدثت أمام أعيننا ؛ تلك هي الأفكار والرغبات التي ترعرعت قبل نهاية القرن السابع عشر ، والتي اتحدت لتكوين مذهب النسبية والانسانية . الطريق مهده . وكل شيء معاد : يستطيع فولتير أن يقبل .



تجربة عن الفراغ (أمستردام . ١٦٧٢)